اليهود
من كتابهم المقدس
أعداء الحياة الإنسانية

تأليف

كمال أحمد عون

دار الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠



اليهود

من كتابهم المقدس
أعداء الحياة الإنسانية

تأليف

كمال أحمد عون

دار الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة،
تليفون ٣١٥١٠

فهرس الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين المجاهدين .

وبعد :

فقد عرفت الكتاب المقدس لأول مرة معرفة قراءة ودرس لبعض نواحيه عام ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف وكنت معنيا بمعرفة النظرة الدينية إلى المرأة لدى اليهود والنصارى فى مصادرها الأولى ، حينما كنت مشغولا بوضع كتابى « المرأة فى الإسلام » . وراعنى ما وجدت فى العهد القديم وبخاصة فى أسفاره التاريخية من أحاديث الدماء ، وانحرافات الجنس ، وعدوان على قداسة النبيين ...

وشعرت أن هذا الذى جرى ويجرى فى أرض فلسطين قبل حرب مايو سنة ١٩٤٨ وبعدها ليس بعيداً مما أرى وأطالع فى أسفار العهد القديم ، مما يعطى أهمية كبرى لدراسته .

وعاودت النظر فيه بعد العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ وكنت بصدد محاضرة بدار الشبان المسلمين فى طنطا تحت عنوان :

« المبادئ الخلقية للقتال فى الإسلام » وعجب معى صفوة ممن استمعوا إلى ما ورد فى المحاضرة عن دستور اليهود المقدس فى الإبادة والتدمير ، واقترحوا آنذاك طبع المحاضرة .

ثم عاودت النظر كذلك بمناسبة ما عمدت اليه إسرائيل من تحريف لبعض آى الذكر الحكيم فى إذاعات مسجلة أهدتها إلى بعض الدول فى إفريقيا ... فألقيت عدة محاضرات بدار جمعية الشبان تحت عنوان : « مطالعات ودراسات فى التوراة » (رجب سنة ١٣٨٠هـ — يناير سنة ١٩٦١م ») تحدثت فيها عن مسائل : الألوهية ، والنبوة ، والمثل السيئة فى الكتاب .

وتجدد البحث أخيراً بصورة أدق وأشمل حينما تحرج الموقف بيننا وبين إسرائيل ، وما تلا ذلك من عدوان أثيم .

* * *

وكنت فى مطالعاتى السابقة للكتاب أضع عناوين لموضوعاته ... فسجلت ذلك أخيراً بشىء من الاستيفاء أكثر فى مذكرة خاصة كدليل لكل جزئية فيه ، نظراً لأن النسخة المتداولة لا تنبىء عن أكثر من اسم السفر ورقم الفصل (طبع جمعيات الكتاب المقدس ببيروت عام ١٩٥١) .

ومضيت أدرس وأراجع ، وظننتنى أكتفى بمقالين أو ثلاثة أنشرها ولكن البحث فرض نفسه ، فتركته يتنفس بعض الشىء ، أداء لأمانة

الكشف عن مكامن الداء فى الأعداء ، أولئك الذين بدا من أصالتهم فى الشر ،وعراقتهم فى السوء ألاَّ أمَل فى استقامتهم ما لم تكسر قناتُهُمْ ، وتُحطم صَفاتُهم، ثم لا خير فيهم يرتجى بعد إلا أن يشملهم المجتمع الاسلامى بكرمه المعهود ، فيضمهم تحت جناحه ، كأهل كتاب يحيون فى سماحته ، صاغرين لعزته ، آمنين بعدالته ، يسعون على عيشهم ، وينصرفون إلى كسبهم ، متجحرين فى بيوتهم ، مقلَّمة أظفارهم ، مُبْعَدَةً سمومهم ، كما سبق أن عاشوا فى ظلال الإسلام، وتحت رايته .

* * *

ولقد ظهر عن اليهود كتابات كثيرة فى العهد الأخير ، وقرأت منها ما استطعت ، وبعض الكاتبين عرض لتاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم المقدسة ، أو « بروتوكلات صهيون » وكثيرون آخرون ينقلون كلمات من هنا وهناك بغير تحقيق ولا مراجعة ، واهمين أن الحاجة الآن ماسة إلى زيادة التشنيع والسباب للأعداء .

* * *

وفى ظنى أن هذا البحث على وجازته يعطى صورة صادقة وكاملة فى حدود ما ابتغاه من أن اليهود من كتابهم المقدس أعداء لكل معنى إنسانى كريم فى هذه الحياة ، فى منهج علمى دقيق ينسب النقل إلى موضعه من الكتاب كلما احتاج الأمر الى ذلك .

ويطلعنا على مكامن الشر الأصيل فى نفوس عدونا العادى على أرضنا ومقدساتنا ، مما يستبين لنا بوضوح أن علاج ذلك ليس أمراً

هيناً ، يمكن تأتّيه بمسكنات وقتية ، أو حلول جزئية ، أو أعمال عاطفية أو ارتجالية .

* * *

ثم هو يقيم حجة لا تعدلها حجة على العدو فى دعواه حقا تاريخياً فى فلسطين ، وذلك من شهادته على نفسه بطروِّه على أهلها المقيمين بها . ولما هاجر منها إلى مصر ضعيفاً ، وعاد بعد قرون غازياً لم تخلص جميعها له يوماً واحداً ، حتى فى عصرهم الذهبي على عهد الملكين العظيمين : داود وسليمان عليهما السلام ، إلى أن حطّم الاسرائيليون فيها تحطيما أكثر من مرة ثم أزيلوا عنها ، وأن الإسلام حينما ورد على عرب الشام وأزال ملك الرومان ، لم يكن لدولة اليهود أثر ، ولا لهيكلهم وجود .

* * *

كما يفند من كتابهم — مضافاً إلى حجة الواقع التاريخى الصحيح — تفنيدا قاطعا ادعاءهم عهداً من الله سبحانه لابراهيم وبنيه بملكية فلسطين ملكاً أبدياً ، بما يكشف حقيقة عهد الله تعالى لأبى الأنبياء عليه السلام وتزييف اليهود لهذه العهود .

وأخيراً : فقد آثرت أن أسمى اليهود بحقيقتهم الحاضرة المتمثلة فى انتمائهم الاسمى إلى شريعة نبى الله موسى عليه السلام ، دون ما يزعمونه لأنفسهم من شرف النسب إلى نبى الله يعقوب الملقب باسرائيل ، وذلك لمخالفة زعمهم الواقع التاريخى ، كما أوضحته فى الفصل الأول عند الحديث على اليهود وبنى اسرائيل .

وبعد :

فإنه لشرف لهذا البحث أن يكون من بحوث مؤتمر العلماء المسلمين، الذي عولجت فيه قضية فلسطين ، وأن ينال الرضا والتقدير .

وعسى أن يكون هذا البحث مؤتياً ثماره فى التحذير الحقيق من خطر العدو الصهيونى . والله المسئول أن يمد المخلصين بمدده حتى يعود الحق الى نصابه ، وترجع فلسطين الى سالف عزهـا ومجدها .
وبالله التوفيق .

كمال أحمد عون

الفصل الأول

اليهود بين الحقائق والدعاوى

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ . إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

صدق الله العظيم

وعد قاطع – دهشة تزول – اليهود وبنو إسرائيل – إبراهيم وعهود التوراة – نظرة فى العهد – بنو إسرائيل فى مصر – حفاوة – خروج .

وعد قاطع :

هذه الآية القرآنية الكريمة من كتاب الله الكريم ليست فقط وعداً إلهياً قاطعاً بما ينتظر اليهود بين الحين والحين من عذاب أليم ، وخطر جسيم ، وهوان وتشريد إلى يوم القيامة ، وإنما هى كذلك ترجمة صادقة عن فطرة مسيخة شوهاء عليها عامة هؤلاء الناس ، منذ بدّلوا آيات الله ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وكفروا بالله ، وقتلوا أنبياءه ، وعاثوا فى الأرض مفسدين .

وذلك أن الله العادل الحكيم فى غفرانه ورحمته وعفوه لا يسجّل هذا الوعيد الشديد بذلك العذاب المهين المتجدد أبداً حتى تقوم الساعة ما لم يكن فى طباع أولئك الفريق من الناس من السوء والفساد والحقد الأسود والبغضاء والقسوة على عباد الله ما يحرمهم العيش فى سلام ووئام وهدوء نفسى وتعاون مع الآخرين .

دهشة تزول :

ولقد كنت أعجب غاية العجب من أعمال اليهود فى فلسطين عام ثمانية وأربعين قبل إعلان دُوَيْلَتِهِمْ بقليل ، وأدهش لإسرافهم فى القسوة والبطش مع ما هم عليه من الذلة والقلة والحاجة الدائمة إلى سند من غيرهم ، على أنهم كانوا حينذاك حديثى عهد باضطهاد هتلر والنازيين لهم ، وبما لاقوا على أيديهم من ضروب النكال والتقتيل والتشريد ، حتى أتيح لى بعد ذلك بقليل أن أعرف سرّاً ما خفى علىّ ، وإن لم يكن فى ذاته سراً ولا خفياً ، وكيف يكون سراً ما يقرؤه الملايين ، وما يطبع ويذاع بلغات العالم فى الشرق والغرب القرونَ تلوَ القرون ؟

وإذا كُنْتُ قرأتُ الكثير مما كتب عن اليهود ، وحفظت ماورد عنهم فى القرآن الكريم ، واستوعبت جانباً هاماً مما جاء بشأنهم فى السنة الصحيحة والسيرة النبوية ، وطالعت صحفاً من تاريخهم ، فالحق أنى لم أتبين تفسير ذلك السلوك جلياً بما يكشف عن منابع السوء فى قلوب اليهود المعاصرين على نحو ما تبينته فى كتابهم المقدس .

لقد كان غايةُ الظن فى تفسير سلوك المعاصرين منهم أنهم ورثوا أسلافاً ضلوا سواء السبيل فغضب الله عليهم ، وأذاقهم من سوء ما صنعوا ،

وكان للأبناء من نزوع العرق ، ودسائس الجبلّة ، وأخلاق الآباء حظٌّ مقسوم ، ولم يكن فى الحسبان أن كتابهم المقدس الذى يدينون به يرسم لهم أسوأ ما يرسم المعلم لتلميذه ، بل ينهج لهم فى بعض تصرفاتهم الشخصية وفى سياستهم الدولية ما تقرّ به عين الشيطان ، دع التلمود الذى هو التعاليم التى تناقلوها شفوياً منسوبة إلى موسى عليه السلام ، ثم دونوها وفيها شروح أحبارهم ووصاياهم فقد ينكرون بعض ما فيه ، ودع ما يسمى « بروتوكلات حكماء صهيون » ... تلك التى نشرت مراراً فى مطالع هذا القرن وفى كل مرة تختفى عقب ظهورها ، فقد ينكرون كل ما فيها .

وسيكون أساس حديثنا عنهم من كتابهم حيث لا مجال حينئذ لانكار أو مكابرة ، ولا مظنة فى ادعاء أو تزيّد ، فلندع النصوص تنطق ، ولنُفْسِح لكتابهم يسجل عليهم ، ولآياتهم تشهد بحقيقة أمرهم ، فهى فى هذا — ولا ريب — أقطع بياناً ، وأسطع برهاناً ، ولك بعد قراءة ما أنقله بنصه — وإنه لقليل من كثير — أن تعتقد كما اعتقدت اليأس من صلاح اليهود بل من مجرد استعدادهم ليعيشوا مع الشعوب على نحو ما ينبغي لحياة الشعوب ما داموا يهوداً أو على شيء من تراثهم القديم .

اليهود وبنو اسرائيل :

يخلط بعض الباحثين بين اليهود وبنى إسرائيل ، وذلك الخلط بعض الذرائع المقصودة للصهيونيين إلى أغراضهم السياسية ، فهم

يريدون تحقيق نسب اليهود الحاليين إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، استطالة بشرف النسب ، وتذرعاً للتمسك بما جاء فى التوراة من الوعد باعطاء الأرض المقدسة إلى بنيه ، هذا الوعد الذى سنعرض قريباً لحقيقته وجدواه .

يقول صاحب المنجد من قسم الأدب والعلوم : « اليهود : اسم أطلق منذ القدم على الشعب سليل ابراهيم الخليل من اسحق ، يعرفون بالعبرانيين ، أو بنى إسرائيل . انتشروا فى العالم من قديم الزمان » .

وفى هذا القول من مجافاة الحقيقة ما فيه ، فبنو إسرائيل هم ذرية نبى الله يعقوب الملقب باسرائيل بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام .

أما اليهود فهم الذين ينتسبون إلى شريعة موسى عليه السلام ، كما هى بأيديهم الآن على ما داخلها من التحريف والتبديل والتشويه ، فاليهود قديماً كما قال محققو المؤرخين(١) « أعم من بنى اسرائيل ، لأن كثيراً من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهوداً ، ولم يكونوا من بنى إسرائيل » .

بل يقرر هذا كتابهم المقدس حينما روى أن بعض هؤلاء اليهود غير الاسرائليين قد بلغوا مراتب القيادة فى الجيش ومن هؤلاء أوريا الحثى أحد القادة المخلصين لداود ، صاحب الأسطورة المعروفة التى سنعرض لها بعد — وقبيلة أوريا الحثى وهم بنو حث فى فلسطين قبل قدوم ابراهيم وقد أكرموا مقامه بينهم كما سيجىء قريباً . كذلك

(١) انظر المختصر فى اخبار البشر لأبى الفدا ص ٨٧ .

جاء فى سفر « استير »(١) بعد ذكر نجاة اليهود من الإبادة فى بلاد فارس بحيلة أوقعوا فيها بخصمهم هامان ، بأمر « أحشورش » ملك الفرس قوله : « وكان لليهود بهجة وفرح وسرور وكرامة ، وصار كثير من أمم تلك الأرض يهوداً لأن خوف اليهود حل عليهم » كما جاء أيضاً أنهم فى شكرهم لله على النجاة لم يكفهم أن قتلوا عدوهم وبنيه العشرة ، بل أعملوا السيف أياماً فى رقاب مخالفيهم ، وأبادوا منهم عشرات الألوف » .

ولقد نزلت الكوارث باليهود قديماً إلى حد الإبادة والاستئصال حتى لم يكد ينجو منهم إلا سبيٌّ أو شريد ، على ما سنشير إلى ذلك من وقائع التاريخ .

ويهود اليوم — كما يشهد الواقع — خليط من أمم العالم شرقه وغربه ، لا يخلص لهم نسب ، ولا يصفو لهم دم ، فقد اختلطوا بأمم الأرض كارهين وطائعين ، وطوَّحت بهم الأحداث كما طوحت بأسلافهم من أمة إلى أمة ، ومن صُقع إلى صقع ، وما تزال تنزل بهم كشأنهم فى القديم .

---

(١) سفر استير من الكتاب المقدس ص ٨٢٣ — واستير التى سمى السفر باسمها يهودية كانت توضع موضع الاختبار فى بيت ملك فارس من المساء إلى الصباح ، فأعجبته بعد مغاضبة للملكة السابقة فتزوجها وجعلها ملكة بعدها ، فخدمت بنى ملتها بتدبير بعض رؤوسهم ، حتى تخلصوا من أعدائهم ، وسنعرض له فى فصل « كتاب اليهود المقدس والأخلاق » .

أما إبراهيم الخليل عليه السلام : فهو عربي هاجرت قبيلته من قلب الجزيرة العربية إلى العراق ، ثم هاجر بعد بعثته إلى أرض كنعان بالشام ، ورحل إلى مصر ، ثم عاد ثانية إلى حيث كان بأرض كنعان فى جنوب فلسطين ، ثم رحل بابنه اسماعيل وأمه الى الحجاز حيث أسكنهما هناك ، وكان يمر بولده حيناً بعد حين(١) ، حتى أمر باقامة القواعد من البيت الحرام ، قبلة الإسلام بمكة المكرمة يعاونه ولده اسماعيل الذى جاءت منه أمة العرب خير أمة أخرجت للناس .

وإذا كان ابراهيم عربياً خالصاً من سلالة العرب العاربة التى يرتفع نسبها إلى سام بن نوح عليه السلام فهو كذلك أبو العرب المستعربة الذين هم أبناء اسماعيل من ابراهيم ، وهو بهذا جد العرب كما هو جد بنى اسرائيل .

وإبراهيم لا يسمى إسرائيلياً ، فاسرائيل كما مر حفيد ابراهيم ، كما لا يسمى يهودياً فيهوذا الذى يتعلقون بالنسب إليه أحد أبناء إسرائيل ، وبالأولى لا يكون مسيحياً ، فلم يكن قد اقترب زمان المسيح « ماكان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » .

---

(١) زعمت التوراة فى سفر التكوين ٢٦ أن ابراهيم صرف هاجر ، وأعطاها ولدها اسماعيل ، فمضت وتاهت فى برية بئر سبع حتى طمأنها ملاك الله . . فأقام اسماعيل فى البرية ، واتخذت له أمه امرأة من أرض مصر ، وأغفلت رحلة الحجاز وإقامة اسماعيل واشتراكه مع أبيه فى إقامة البيت الحرام قصدا حتى لا يكون لاسماعيل وذريته من بعده هذا الشرف العظيم .

ابراهيم وعهود التوراة :

ولنلق نظرة موضوعية على ما ورد فى الأسفار الأولى — وهى الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام من دعوى العهود الالهية لابراهيم وبنيه بامتلاك فلسطين ملكاً أبدياً ، والقيمة الحقيقية لهذه العهود .

وخلاصة الموضوع : أن الله تعالى قطع مع ابراهيم عليه السلام عهداً أن يعطيه أرض غربته (كنعان : فلسطين) ملكا مؤبّداً له ولبنيه من بعده ، فلما شكا إلى الله تعالى أن ليس له وارث من صلبه وعده بنسل كثير ، ثم رُزق باسماعيل من هاجر ، ومن بعده اسحق من زوجه سارة ، ثم ولد له أبناء آخرون من غيرهما .

ثم تحول العهد من ابراهيم وبنيه عامة الى اسحق خاصّة وبنيه ، ورزق اسحق بولديه عيسو ويعقوب .

ثم تحول العهد مرة أخرى فخص يعقوب الملقب باسرائيل وبنيه .

فهل تحققت هذه العهود على نحو ما وردت فى أسفار الكتاب المقدس ، أو تحقق ما يخالفها تماماً ؟

وإلى القارئ البيان :

وردت هذه العهود فى الأسفار الأولى من الكتاب المقدس ، لكل من ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام ، ثم تكرر التذكير بها فى الأسفار التاريخية والنبوءات الأخيرة عشرات المرات ، وهذه نماذج

من نصوصها بما يغنى فى بيانها عن مواضع تكرارها مع تعقيب كل عهد بالنظر فيه .

مع إبراهيم عليه السلام :

« (١٤) وقال الرب لأبرام — سمى بعد بابراهيم — ارفع طرفك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوباً وشرقا وغرباً « (١٥) إن جميع الأرض التى تراها لك أعطيها لك وللسلك إلى الأبد » (تكوين ف (١٣) .

وحينما شكا إلى ربه — ولم يكن رزق نسلا — أن وبيب بيته سيرثه جاءه الجواب : « (٤) ... لا يرثك هذا بل من يخرج من صلبك هو يرثك » (تكوين ف ١٥) .

وجاء بعد هذا : « (٧) وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك ... (٨) وأعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك ، جميع أرض كنعان ملكا مؤبداً » (فصل ١٧) .

هل تحقق ؟

لقد أقام ابراهيم أخيراً بأرض كنعان ، وبها لقى مولاه ، بعد أن بلغ رسالة الله ، ولم يذكر له الكتاب المقدس عدا المال المنقول ، وما بناه من المذابح لتقديم القرابين لله ، سوى مغارة تسمى المكفيلة دفن بها زوجه سارة فى حقل اشتراه خصيصا لذلك ، وكان صاحبه قد عرضه هبة إكراما لابراهيم حينما وجه خطابه إلى بنى حيث بعد وفاة

سارة قائلا : « أنا غريب عنكم أعطونى ملك قبر عندكم فأدفن ميّتى من أمامى » (فصل ٢٣ ص ٣٦) .

كما عرضوا عليه من قبل أن يدفن ميته فى أى قبورهم شاء ، ولكنه عليه السلام شكرهم ورغب مكانا خاصا ، ودفع ثمن ما اشتراه .

ثم مات ابراهيم بشيبة صالحة — على حد تعبير كتابهم — شيخا قد شبع من الحياة ، ودفن مع زوجه سارة فى المغارة المذكورة ببلدة الخليل . (ف ٢٥ ، ص ٤١) .

مع اسحق عليه السلام :

العهد : وقبل أن ينتقل ابراهيم إلى جوار مولاه ، تحول العهد من ابراهيم ونسله إلى واحد من نسله ؛ وكان تحوُّله من الابن الموجود فعلا وهو اسماعيل الى ابن موعود به وهو اسحق ، فمع ما قيل لابراهيم : « باسحق يُدْعى لك نسلٌ ... وابنُ الأمةِ — يعنى اسماعيل من هاجر — أيضا أجعله أمَّة فانه نسلُك ، جاء فى العهد ما يلى : « (٢٠) وأما اسماعيل فقد سمعت قولك فيه ، وهأنذا أباركه وأنميه وأكثّره جداً جدا ويلد اثنى عشر رئيساً وأجعله أمة عظيمة (٢١) غير أن عهدى أقيمه مع اسحق الذى تلده لك سارة فى مثل هذا الوقت من قابل » .

فلما ولد اسحق وشب فى كنف أبيه إلى آخر عهد ابراهيم بالحياة ، شارك أخاه اسماعيل فى مواراة أبيهما بعد وفاته ، وأقام فى كنعان زمنا همّ بعده بالهجرة إلى مصر زمن مجاعة بالبلاد فنُهِى عن الهجرة ، وأمر بالنزول قريباً من مَلِك فلسطين فى جرار ، وقيل له : « انزل هذه

الأرض وأكون معك وأباركك لأنى لك ولنسلك سأعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى أقسمته لأبيك ابراهيم » (تكوين ف ٢٦) .

هل تحقق عهد الأرض لإسحق ؟

تجيب فقرات الفصل المذكور بما مؤداه : زرع اسحق بأرض فى جوار الملك ، وقد لقى منه أول الأمر تقديراً ورعاية ، فبورك له فى زرعه تلك السنة كما يقول كتابهم مائة ضعف ، وعظم شأنه فحسده الفلسطينيون ، وأمره الملك أن يغادر الأرض فتحول عنها ، ومضى إلى واد نزل به هناك (الفقرات من ١٢–١٨) .

وعاش اسحق ما شاء الله أن يعيش ، ولم يُعرف له مِلْك أرض وميراث ، إلى أن تقدمت به السن ، وحان أوان رحيله عن الحياة فدفنه ولداه عيسو ويعقوب فى نفس مغارة المكفيلة إلى جوار أمه وأبيه .

مع يعقوب عليه السلام :

العهد : ثم اتجه العهد ثالثة بملكية الأرض إلى يعقوب وبنيه خاصة من دون شقيقه وبكر أبيه عيسو ، بعد أن أخذ يعقوب البركة التى أرادها اسحق لبكره عيسو ، فنالها يعقوب عن غير قصد من أبيه أو رضا ، بحيلة عجيبة ساهمت زوجة اسحق فيها محبةً ليعقوب وهى أمهما معاً ، وقد فصلها الفصل السابع والعشرون ، وجاء فيه كذلك أن يعقوب سيكون سيداً لعيسو وجميع اخوته .

جاء العهد ليعقوب فى رؤيا منامية وفيها : « أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله اسحق ، الأرض التى أنت نائم عليها أعطيها لك ولنسلك ، فانى لا أهملك حتى أفى لك بكل ما وعدتك » (الفقرات من ١١ — ١٦ ف ٢٨) .

ثم تأكد ذلك فى خطاب صريح ، وقد سمى اسرائيل بدلا من يعقوب ، وفيه يقول : « (١٢) والأرض التى جعلتها لإبراهيم واسحق لك أجعلها ، ولنسلك من بعدك أجعل الأرض » (تكوين ف ٣٥) .

هل تحقق ؟

وهل تمت ملكية الأرض وميراثها ، وسيادة يعقوب على أخيه عيسو لقد شرحت عدة فصول هرب يعقوب من أخيه عيسو ، وتوجهه إلى خاله ، وزواجه من بنتى خاله ، وخدمته أياه سبع سنين ثم عودته موفوراً بمال منقول ، واسترضاءه أخاه إلى حد السجود سبع مرات بين يديه (١) ،وكل مُلْكِ يعقوب من الأرض بعد هذا قطعةُ حقلٍ صغيرة اشتراها بمائة نعجة ضرب خيامه بها ، وأقام عليها مذبحاً تقدَّمَ فيه القرابين لله ، ثم رحل عنها وتركها (تكوين ص ٥٧— يشوع ص ٣٩٠) .

وانتهى المطاف بيعقوب فى مصر بآله وبنيه بدعوة من مليكها ، على أثر مجاعة حلت بفلسطين وكان يوسف أثناءها على خزائن مصر فى

(١) ستأتى الاشارة إلى ذلك بشىء من التفصيل عند الكلام على مسألة الألوهية فى الكتاب المقدس .

قصته المعروفة ، وأقام يعقوب فى مصر حتى تمام حياته، ولم يُورِه من أرض كنعان أكثر من دفنه بعد وفاته مع سلفه الصالح فى مغارة المكفيلة وقد تم له ما أراد .

رأى لبعضهم :

يرى بعض الكاتبين أن عهد الله لإبراهيم بأرض فلسطين الذى لوحت به التوراة يعم أبناءه جميعاً من العرب والإسرائيليين ، وتخصيص العهد جاء من طمع اليهود وكذبهم المعهود .

فهل يبرر النظرُ الدقيقُ ما يقوله هؤلاء الكاتبون ، وهل تكون العهد الإلهى لهؤلاء الأنبياء المكرمين عهد أرض يملكونها ويورثونها الأعقاب اللاحقين ؟

لعل مما يفيد فى تحديد الجواب الحاسم عن حقيقة العهد — إلى جانب ما سبق — أن نذكر من أبناء ابراهيم على سبيل المثال مدين ، ولم ينل من العهد شيئاً — على حد قولهم — فقد خص به اسحق من دون أخوته ، لكن مدين كما ذكر كتابهم نال أرضاً واسعة ملك عليها ، لم ينل مثلها أخوه اسحق ، وبعد مدين بنوه قامت فيهم ومنهم الملوك (راجع سفر العدد فصل ٢٢ ، ٣١) .

كذلك من أبناء اسحق عيسو الذى حرم العهد وظفر به أخوه يعقوب ، وقد بدا فى رواية كتابهم وافر الثراء عظيم الجاه ، يخافه يعقوب ويفر من وجهه ، فلما اشتد عود يعقوب وعاد إلى أخيه سجد بين يدى عيسو كما سبق ، وتبعه فى السجود زوجتاه وبنوه وإماؤه حتى رضى عنه عيسو وتلقاه بالترحيب (تكوين ٣٣) .

وعيسو هذا يسمى أدوم ، وهو أبو الأدوميين ، وملك من نسله ملوك عديدون قبل أن يقوم أى ملك فى بنى اسرائيل ، عدد الفصل السادس والثلاثون منهم ثمانية وصدر لهم بأنهم ملكوا قبل اسرائيل — على حين أن يعقوب عليه السلام انتقل بآله جميعاً إلى مصر ، وظل بنوه وأحفاده خارج البلاد المقدسة لبضعة قرون .

* * *

لئن كان العهد عهد أرض ومادة لقد تخلف العهد عن ابراهيم ، وتخلف عن اسحاق ، وتخلف عن يعقوب برغم النص على كل منهم ويليه من بعده ، وظل متخلفاً بعد يعقوب أكثر من أربعة قرون ، فلما بعث موسى وأخرج بنى اسرائيل من العذاب المهين لهم بأرض مصر واتجه بهم إلى فلسطين جبنوا عن دخولها وظلوا فى التيه بالصحراء عشرات السنين ، ولما دخلوها بعد موسى(١) لم تركن إليهم أرضها ، ولم يدم ملكهم بها ، ثم عادوا إلى التيه العام نحواً من عشرين قرناً .

وسؤال البداهة أن يقال : فأين محصل تلك العهود الإلهية القاطعة؟ أليس من حق الباحث أن يرى أن عهود الأرض وميراثها ليست سوى عهود أرضية زائفة ، يكذبها الواقع التاريخى وينقضها على غير قصد منهم كتابهم ، وترفضها سنة الله الحكيمة مع انبيائه الكرام « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركناه صدقة » إنهم لايورثون

---

(١) مات موسى ودفن فى أرض الموآبيين (ص ٣٤٣) وهم من سلالة لوط ابن أخ إبراهيم ، وفى كتابهم ان هذه الأرض ليست لبنى إسرائيل إذ هى هبة من الله لأبناء لوط (ص ٢٨٩ سفر تثنية الاشتراع) .

درهماً ولادیناراً ، إنما یورثون علماً وهدى ورحمة وذلك هو الفضل المبین .

یقول الأستاذ العقاد — طیب الله ثراه — عن تحولات العهود لدى الیهود : « وتحولت الوعود الآلهیة فی کتبهم تحولا جدیداً مع مصالح السیاسة فقد كان الوعد لابراهیم فحولوه إلى اسحق لیخرجوا منه أبناء إسماعیل ثم حولوه إلى یعقوب لیحصروه فی سلالة اسرائیل ، ثم حولوه إلى ذریة داود لیحصروه فی مملكة الجنوب دون مملكة الشمال ، وهكذا كان وعد صهیون وعداً سیاسیاً تابعاً لمآرب الدولة ومآرب الهیكل الذى یقام فی جوارها ، فلا شأن له بالعقیدة التى تنتظم جمیع سلالة ابراهیم » (الصهیونیة العالمیة ، ص ١٢) .

تتمة العهود :

أما العهد لداود وذریته على ما أشار العقاد رحمه الله فله شأن آخر فی واقعه ومصیره ، لقد كان لابراهیم وبنیه من بعده بملكیة أرض غربتهم فی فلسطین قبل المیلاد بنحو ألفی عام ، على تفاوت بین المؤرخین ، فلما جاء داود ومن بعده سلیمان حول القرن العاشر قبل المیلاد كانت لبنی اسرائیل دولة فی فلسطین ، فجاء العهد على ما روته أسفارهم التاریخیة ببقاء الملك فی بیت داود ومن بعده سلیمان إلى الأبد مشروطاً بالتمسك بآداب الدین ، وحفظ تعالیم الشریعة بغیر انحراف ولاتفریط ، مع الوعید بسوء العاقبة إن حادوا عن الطریق المرسوم .

سليمان وعهد الرب :

جاء فى الفصل التاسع من سفر الملوك الثالث بعد أن أتم سليمان بناء بيت الرب ، وتجلى له وقد سمع صلاته وتسبيحه وتضرعه ، وقطع معه العهد قائلا : « (٤) وأنت إن سرت أمامى كما سار أبوك داود بسلامة القلب والاستقامة ، وعملت بجميع ما أمرتك به ، وحفظت رسومى و أحكامى (٥) أقر عرش ملكك إلى الأبد كما كلمت أباك قائلا : لاينقطع لك رجل عن عرش اسرائيل(٦) وإن حدتم زائغين عن اقتفائى أنتم وبنوكم ولم تحفظوا وصاياى ورسومى التى جعلتها أمامكم وذهبتم وعبدتم آلهة غريبة وسجدتم لها(٧) فانى أقرض اسرائيل من وجه الأرض التى أعطيتها لهم ، والبيت الذى قدسته لاسمى أنفيه من حضرتى فيكون اسرائيل مثلا وأحدوثة بين الشعوب بأسرها(٨) وهذا البيت يكون عبرة فكل من مرَّ به ينذهل ويصفِر ويقول : لماذا فعل الربّ كذا بهذه الأرض وهذا البيت (٩) فيجاب لأنهم تركوا الرب إلهم... وتمسكوا بآلهة غريبة وسجدوا لها وعبدوها ...» . (ف٩ ص ٥٧٠) .

مصير هذا العهد :

ولم يمض على هذا الكلام سوى فصل واحد فى صفحتين حتى وصمَ كتابهم سليمان عليه السلام بنقض العهد ، ونسب إليه شناعة الكفر ، وذكر أن نساءه العديدات ملن بقلبه إلى اتباع آلهة غريبة وقال : « (٥) وتبع سليمان عَشْتارُوت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس

بنى عمُّون (٦) وصنع سليمان الشر فى عينى الرب ... الذى تجلى له مرتين وأمره الايتبع آلهة أخرى ...فلم يستجب له ، فغضب عليه ، وأثار عليه بعض أعدائه ، وأوعده بشق ملكه بعده، ولكنه أكرمه ببقائه مدة حياته من أجل أبيه داود (ف ١١ ص ٥٧٤) .

براءة سليمان :

ولقد برأ الحق جل جلاله ساحة سليمان من شناعة الكفر والزيغ ، وعصمه بالرسالة والوحى ، ومنحه العلم والحكمة ، وعلمه منطق الطير ، وسخر له الريح تجرى بأمره ، ووهبه ملكاً لاينبغى لأحد من بعده وإنه لذلك لأهلٌ ، وإنها لعقيدة كل مسلم .

ولكنا سقنا ما سقناه من كتابهم المقدس !!! شهادة من الخصم على نفسه لا على سليمان ، عليه وعلى نبينا وجميع رسل الله أفضل الصلاة والسلام ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » وتلك شياطينهم الملعونون على لسان داود وعيسى ابن مريم بما عصوا وكانوا يعتدون ، يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ويحرفون الكلم عن مواضعه .

ولقد انشقّ ملك بنى اسرائيل بعد سليمان ، ونفى الله البيت الذى بناه سليمان من وجهه بظلمهم لابظلم سليمان ، وسلط عليه من الجنود من أزالوه ، فولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون، ثم ورّث الله أرضه قوماً صالحين « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » .

حقيقة العهد :

وصفوة القول في ذلك أن عهد الله لابراهيم ليس عهد ميراث أرض له ولبنيه مشروطاً أو غير مشروط ، فابراهيم أبو الأنبياء ، احتمل في سبيل الدعوة إلى الله مالم يحتمل مثله أحد تقدمه ، جاهد بنفسه حتى ألقاه جبابرة الأعداء في النار فأنجاه الله ، وقدم ولده قرباناً لربه لولا فداء سبق من الله ، وكان مادون النفس والولد من وطن ومال ودنيا لله وفي سبيله ، فكان للأوفياء قدوة ، وللمجاهدين علماً ، وللناس إماماً ، وكما قال سبحانه : « وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتي قال : لاينال عهدي الظالمين » .

وعلى نهج ابراهيم كان الأخيار من ذريته « وعهدنا إلى ابراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ... وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .

« ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب »

ومن هنا تحقق عهد الله لإبراهيم وبنيه ، تحقق لإسماعيل ولإسحق ، وتحقق ليعقوب وليوسف الصديق من بعده وكل بلغ رسالة ربه .. وتحقق من بعدهم لموسى وهرون ولداود وسليمان وغيرهم ثم لعيسى

ابن مريم ، وتم العهد بمحمد خاتم النبيين وكما قال : « أنا دعوة أبى ابرهيم » وبهذا كان تحقيق الوعد كاملا ، وجاءت النبوة فى الهداة المرشدين من ولد ابراهيم أجمعين .

بنو اسرائيل فى مصر :

أوليتهم : يذكر كثير من المؤرخين أن أول دخول بنى اسرائيل مصر كان فى عهد يوسف الصديق ، حيث وفد عليه أبوه وإخوته ، ومن نسلهم تكاثر بنو اسرائيل إلى عهد موسى : وكان اضطهاد فرعون لهم إلى أن خرج بهم موسى — كما ورد فى القرآن الكريم — واجتاز بهم البحر فى معجزة ظاهرة إلى صحراء سينا فى طريقهم إلى الأرض المقدسة ، حيث جبنوا عن دخولها بحجة أن فيها قوماً جبارين وقالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » فقضوا فى التيه أربعين عاماً ، ولم يدخلوها إلا بعد موسى وهارون .

وفى الكتاب المقدس ما يفيد أنهم كانوا معروفين فى مصر زمن يوسف ، وقبل دخول أبويه وإخوته ، وأنهم كانوا محل زراية وتحقير من المصريين ، بحيث لم يشفع لهم ما بلغه يوسف بشخصه من مكانة مرموقة على خزائن مصر وعند مليكها .

جاء فى الفصل ٤٣ من سفر التكوين فى ذكر دخول إخوة يوسف ومعهم شقيقه الصغير ما يلى : (٣٠) ثم أسرع يوسف وقد تحرك فؤاده نحو أخيه وأراد أن يبكى فدخل المخدع وبكى هناك (٣١) ثم غسل وجهه وخرج وتجلد وقال : قدموا الطعام (٣٢) فقدموا له

وحده ، ولهم وحدهم ، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم ، لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين (ص ٧٦) .

حفاوة بالغة :

ومع هذا فكان ورود إسرائيل عليه السلام وبنيه محلّ حفاوة بالغة وترحيب كريم ، فقد ذُكر فى الفصل الخامس والأربعين وما يليه من سفر التكوين سرور فرعون وعبيده بقدوم إخوة يوسف عليه السلام ودعوةُ فرعون لهم ولأبيهم ليقيموا بأرض مصر ، وأن فرعون لم يشأ أن يرتحلوا اليه من كنعان على الدواب فأرسل عَجَلات لتحمل يعقوب وآله مكرمين ، فلما قدموا ومعهم ماشيتهم رحب بهم أجمل الترحيب ، وقال ليوسف : أرض مصر بين يديك أنزلهم بأجودها ... وأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر بجاسان (من أرض الشرقية) وكانوا قريباً من سبعين نفساً فتملكوا ونموا وكثروا جداً وأقاموا أكثر من أربعة قرون .

ومضى فرعون (١) هذا كريماً ، قد استجاب لنبى الله يوسف وآمن به ومرت الأيام وصار الاسرائيلون مئات الألوف وتبدل الحال من نعمى إلى بؤسى ، وجاء فرعون(٢) آخر طاغية علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم . فبعث الله موسى وهرون بأمره الى فرعون « أن أرسل معنا

(١) ويسمى عند مؤرخى العرب الريان بن الوليد الكامل جـ ١ ص ٨٢

(٢) ويسمى الوليد بن مصعب الكامل جـ ١ ص ٩٥

بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » .

وكان ما قص الله من شأنهم فى القرآن الكريم ، وقريب منه ما حدث به كتابهم ، حتى تهيأ لموسى الخروج من مصر ببنى إسرائيل .

خروجهم من مصر :

تحدث الكتاب المقدس عن خروجهم من مصر ، وتوجههم إلى أرض فلسطين ، وعن أخبارهم فى الطريق ، وتمردهم على نبيهم ، وكفرهم بآيات الله ، وعقابهم بالتيه فى الصحراء حتى انقرض الجيل الشرير كما يسميه كتابهم .

وكان خروجهم بعد إقامة امتدت إلى أربعمائة وثلاثين عاماً بأمر الرب الذى وعدهم — كما قيل — أن يعطيهم حظوة فى عيون المصريين ، لا ليعيشوا معهم فى سلام ، ولا لينصرفوا إذا انصرفوا بسلام ، ولكن ليسرقوهم وهم خارجون .

جاء فى سفر الخروج ف٣ ص ٩٦ ما يلى : « (٢١) وأهبُ الشعبَ حظوة فى عيون المصريين فاذا انصرفتم فلا تنصرفوا فارغين (٢٢) بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضّة وذهب وثياباً تجعلونها على بنيكم وبناتكم وتسلبون المصريين » .

ولما أرادوا الخروج أعدوا عدتهم ، وأحكموا فى السلب خطتهم ، ونسبوا ذلك الى نبى الله موسى عليه السلام . وكما قال كتابهم فى ص ١١١ ، ١١٢ من سفر الخروج ما نصه :

« (٣٥) وصنع بنو إسرائيل كما أمر موسى ، فطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، (٣٦) وآتى الربُّ الشعب حظوة فى عيون المصريين ، فأعاروها لهم وسلبوا المصريين » .

* * *

وقد يُظَنّ أن ذلك تعويض لهم من أموالهم التى تركوها ، ولكن الفقرات التى تلت ما سبق ناطقة بغير ما تبادر إلى الأذهان اذ تقول : « (٣٧) ثم ارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت بنحو ستمائة ألف من الرجال خلا الأطفال ، (٣٨) وخرج معهم أيضاً لفيف كبير وغنم وبقر ومواشى وافرة جداً ، (٣٩) فاختبزوا العجين الذى خرجوا به من مصر مليلا فطيرا إذ لم يكن قد اختمر » .

الفصل الثانى

من مصر إلى التيه

«قَالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ، أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ »[1].

صدق الله العظيم

فى طريقهم إلى الأرض المقدسة — تفضيل — على مشارفها — التيه أولا وآخراً — من سلوكهم فى التيه — كفر — فساد — تمرد — عصا هرون آية — شرور .

دستور مقدس للإبادة : الأمم البعيدة والأمم القريبة — شق بطون الحوامل — أحقاد موروثة ...

فى طريقهم إلى الأرض المقدسة :

خرج بنو إسرائيل من مصر فى عدد ظاهر ومال وافر ، بعد عدة من فرعون وملئه أن يدعوا موسى وقومه يعبدون ربهم فى الخلاء ، ويقدمون اليه القرابين ، وذلك على أثر ما رأوا من آيات بينات أخذت

(١) ص ٢٠٤٢ ف ٩ تثنية الاشتراع ،

فرعون وشعبه أخذاً شديداً، فصَّلها الفصلُ الرابع وما يليه من سفر الخروج ، وصدق جُملتها القرآن الكريم .

ولكن بنى إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام جدُّوا فى سيرهم متجهين خارج البلاد فاتبعهم فرعون وجنوده ليردوهم إلى ما كانوا فيه من بلاء وتسخير ، « فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون، قال كلا إن معى ربى سيهدين » فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين ، وأغرق فرعون وشيعته الظالمين.

* * *

مضى موسى وقومه إلى سيناء ليدخلوا الأرض المقدسة كما أمرهم الله سبحانه ، ولكن قومه لم يجاوزوا إلا قليلا حتى نسوا الله الذى أنجاهم ، وطرحوا كلَّ ما رأوا من آيات بينة ، ومعجزات باهرة ، وتاقت نفوسهم إلى الوثنية وكأن لا عهد لهم بايمان ، فقالوا وقد رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم : « يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال: إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون، قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين » .

تفضيل :

نعم فضلهم الله تعالى على فرعون وملئه الخاطئين ، وفضّلهم على ساكنى فلسطين من الوثنيين ، وفضلهم سبحانه إكراماً لابراهيم واسحق ويعقوب واليهم ينتسبون ، وفضلهم بموسى وهرون ولا حرج

على فضل الله ، يؤتيه من يشاء من عباده « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » .

بفضل الله ورحمته ولحكمة يعلمها فضّلهم ، لا بخير ظاهر وبر واضح ، وكما يقول كتابهم بلسان الرب سبحانه : « اسمع يا إسرائيل : لا ببرّك واستقامة قلبك أنت آت لتملك أرضهم ، ولكن لأجل إثم أولئك الأمم ، إنه ليس لأجل برك ... لأنك شعب قاسى الرقاب »(١) .

فهم والأنبياء فيهم — على أى حال — أقل شراً من سواهم ، وبعض الشر أهون من بعض ، وعسى أن يكون منهم من يعبد الله مخلصاً له الدين ، وقد كان والحمد لله ، وقليلا ما كان .

على مشارفها :

أشرف بهم موسى على الأرض المقدسة مستقر ابراهيم وبنيه ، وبلد المسجد الأقصى المبارك حوله(٢) ، ورأى أن يبعث العيون من رؤسائهم يرتادون للشعب ، ويستطلعون أخبار القاطنين بها ، فعادوا بعد قليل ليخلعوا قلوب قومهم من هيبة أعدائهم ... ولم يُجْدِهم

---

(١) ص ٣٠٣ ف ٩ تثنية الاشتراع .

(٢) بنى إبراهيم عليه السلام عدداً من المعابد (المذابح) تقدم عليها القرابين ، وبنى بنوه من بعده عددا منها . كما بنى سليمان عليه السلام هيكله التاريخى وذلك بعد موسى بعدة قرون وقد هدم عدة مرات وأعيــد بناؤه ثم أزيل نهائيا قبل الاسلام بزمن طويل أما المسجد الأقصى المتعارف عليه فقد بنى فى جزء من الحرم زمن الوليد بن عبد الملك والحرم كله مسجد — وسيأتى بيان ذلك فى موضعه .

تشجيع رجلين(١) من الرواد وتذكيرهما بنصر الله وأياديه عند بنى إسرائيل ، وتدور بينهم وبين موسى مناقشات حادة يلومونه على أن أخرجهم من مصر ، حتى لقد همَّ بعضُهم أن يقيم عليهم رئيساً غير موسى يرجع بهم ؛

جاء فى الفصل الرابع عشر من سفر العدد ما يلى : « (١) فرفع الشعب أصواتهم وصرخوا وبكى الشعب فى تلك الليلة ، (٢) وتذمر على موسى وهرون جميع بنى إسرائيل وقال لهما كل الجماعة يا ليتنا متنا فى أرض مصر ، يا ليتنا متنا فى هذه البرية ، (٣) لماذا أتى الرب بنا إلى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيف وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ، أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر ، (١٤) وقال بعضهم لنقم رئيساً ونرجع مصر » ؛

وتمضى الفقرات مفصلة وعيد الله سبحانه بضربهم بالوباء حتى يَبيدُوا ، كما تذكر قبول الله سبحانه تضرع موسى وهرون وبعض المخلصين على أن يتيهوا فى الصحراء حتى تنقرض هذه الجماعة الشريرة ثم لا يدخلها إلا بنوهم ومن أطاع موسى وما أقل الطائعين ؛

التيه أولا وآخراً :

لقد كان التيه الذى بدأ بنو إسرائيل به حياتهم بعد خروجهم إلى فلسطين ، والذى بدا محدود الزمان والمكان مقدمة لتيه فى الحياة بغير

(١) هما يشوع بن نون وكالب بن يفنا ؛

حدود ، لقد قضوا بسيناء أربعين عاماً أخذوا فيها بضروب الشقاء والعناء كلما تمردوا على نبيهم ، وانحرفوا عن تعاليم ربهم ، كما رأوا أثناء ذلك من آيات الله وأنعمه الشيء الكثير ، ثم دخلوا فلسطين بعد هرون وموسى بقيادة يشوع بن نون ، وقام فيهم القضاة والأنبياء ، ثم الملوك الشداد كداود وسليمان عليهما السلام ، ولكنهم — كما سنرى من تاريخهم — لم يتوطنوا البلاد مواطنين صالحين، ولم يستقروا بها طويلا حتى كانوا حصيدا للسيف ، جاءهم ذلك من غيرهم ومن أنفسهم ، ثم أكرهت بقيتهم على الجلاء راغمين أذلة ، ثم على التيه العام فى أقطار الأرض وشعوبها ، تلتقطهم البلاد ، وينكرهم العباد ، لا يُخْلِصون لشعب ولا وطن، ولا يسيغهم شعب ولا وطن، فاذا شكوا من الغير ظلما واضطهادا فنى نفسيتهم وسلوكهم أسباب هذا الظلم والاضطهاد « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وسنرى بحول الله بيان ذلك فيما يلى من حديث .

من سلوكهم فى التيه :

لقد أكرمهم الله تعالى بموسى وهرون عليهما السلام ، وأنزل التوراة فيها هدى ونور ، وأراهم من الآيات ما فيه مزدجر لقوم يعقلون ، وتقلبت بهم الأمور ، واستوطنوا المدن ، وتوالى فيهم الهداة والمرشدون ، فما أخرج كل ذلك منهم أمة قويمة السلوك ، ولا صنع منهم شعباً سليم الأخلاق ، بل مَرَنُوا على نقض ما عاهدوا الله عليه ، فكان عاقبة أمرهم خسرا .

لقد مضوا فى الصحراء وأمامهم مجدُ الرب فى ظُلَلٍ من الغمام يهديهم ، ورزقهم يتنزل عليهم من السماء رغداً ، وعذبٌ الماء يتفجر لهم من الصخر الأصم ، وقطعُ السحاب تظلهم من حرارة الشمس المحرقة ، وملابسهم على أجسامهم لا تبلى ، ومع هذا وغيره فكثيراً ما يتمردون ، وقليلا ما يشكرون .

كفر :

يذهب موسى إلى ميقات ربه ثلاثين ليلة ، فلما أتمها الله له أربعين ، كفروا بموسى وإله موسى وقالوا ساخرين : « فان ذلك الرجل موسى الذى أخرجنا من مصر لا نعلم ماذا أصابه ثم اتخذوا لهم من الذهب إلها يطوفون حوله ويأكلون ويشربون ويلعبون ، ويقول بعضهم لبعض : هذه آلهتك يا إسرائيل التى اخرجتك من مصر ، ولم يبالوا بنصح نبى الله هرون ، فلما عاد موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، واشتد فى اللوم على أخيه : « قال ابن أمَّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى » وذكره بما علمه عنهم فقال كما فى كتابهم « أنت عالم بالشعب إنهم أشرار » .

ثم لم يشف بعض هذا الشر من نفوسهم إلا شفار الأسنة يسلونها ليضرب بعضهم رقاب بعض ، ويسقط منهم وبأيديهم فى حساب التوراة نحو ثلاثة آلاف عادوا بعدها إلى الطاعة نادمين(١) .

---

(١) ص ١٤٥ وما بعدها من سفر الخروج .

فساد :

وتقذف الصحراء بهم من مكان إلى مكان ، فاذا حلوا بموضع فسدوا به ، وأفسدوا فيه ، أقاموا قريباً من الموآبيين[1] فى مناطق شرق الأردن ، وموسى وهرون فيهم ، فلم يحفظوا ديناً ، ولم يصونوا أدباً ، ولم يحسنوا جواراً ، وذكر فى هذا كتابهم المقدس أنهم فجروا مع بنات الموآبيين وتعلقوا بأصنامهم ، وسجدوا لآلهتهم ، ولم يكد موسى يأمر بقتل كل من أرتد عن دينه حتى أقبل رجل اسرائيلى « وقدم إلى إخوته امرأة مدينية على عينى موسى وعيون كل جماعة اسرائيل ... » ولولا حمية أحد كهانهم الذى تتبع الرجل الاسرائيلى والمرأة بطعنة نافذة ، وقيام موسى ومن معه من الرؤساء للرب أمام شمس الصحراء للتضرع والبكاء ، ما كفت الضربة التى قضت على أربعةوعشرين الفاً. (سفر العدد ف ٢٥ ، ص ٢٦٢) .

تمرد وحسد :

ولما طال عليهم الأمد قليلا تآمروا على موسى وهرون حسداً على مكانتهما ، وأنكروا عليهما فضل الله ونعمته ، وقال قائلهم بلسان مائتين وخمسين من رؤسائهم : « إن الجماعة كلهم مقدسون ، والرب فيما بينهم ، فلماذا ترتفعان على جماعة الرب » وتقدم الرؤساء ليقوموا بمراسم العبادة ويقدموا القرابين ، لا حبًّا فى عبادة وإخلاصاً فى طاعة ، ولكن مشاقة لموسى وهرون ، غير عابئين بانذار موسى لهم وتحذيره

(١) ينسبون فى سفر التكوين إلى نبى الله لوط عليه السلام من إحدى ابنتيه فى شناعة سطرتها الفقرات ٣٠ وما بعدها ف ١٩ ص ٣١ ، وجلت عنها عصمة الأنبياء ، وسنعرض لها فى فصل كتاب اليهود المقدس والأخلاق ... ونبين سر الفرية .

إياهم حتى انشقت الأرض فابتلعت المخالفين وبيوتهم وأموالهم ، كما خرجت نار فأكلت المائتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور ، على مرأى من جموعهم حيث فر الباقون مذعورين .

فلما أفاق الشعب من هول ما رأى عاد فى اليوم التالى إلى التذمر قائلا لموسى وهرون : « قتلتما شعب الرب » واجتمعوا عليهما ، ولم يكفوا عنهما حتى أخذتهم ضربة شديدة لم تنجل عنهم الا بتكفير هرون عن خطاياهم كما أمره موسى ، وقد مات منهم فى هذه الضربة وحدها أربعة عشر ألفاً وسبعمائة عدا من خسف بهم ، ومن أكلتهم النار من بينهم (سفر العدد فصل ١٦ ص ٢٤٦) .

عصا هرون آية :

وأراد موسى أن يبرهن لهم على اصطفاء الله تعالى لهرون ، فأخذ من كل رئيس عصاه وكتب على كل عصا اسم صاحبها — بأمر الرب — ومن بينها عصا هرون ، ثم وضع جميع العصى فى مكان مقدس إلى الغد ، فلما أصبحوا « إذا عصا هرون قد أفرخت فأخرجت براعيم وأزهرت وانضجت لوزاً » ونظرها جميع بنى إسرائيل ، ثم أخذ كل رئيس عصاه ، وحفظت عصا هرون كما يقول الكتاب : « آية لذوى التمرد » ليكفوا فلا يهلكوا ، ولكنهم لم يكفوا وقالوا متذمرين ومنكرين « كل من دنا إلى مسكن الرب يهلك ، ترى أنهلك جميعاً ؟ » (فصل ١٧ ص ٢٤٩) .

نعم لم يكفوا ولم يكتفوا ، بل عاودوا السخط على موسى ورب موسى الذى أصعدهم من مصر ليموتوا — على حد قولهم — فى البرية ،

ثم لم يثوبوا إلا بحيات نارية تلدغهم فتقتل الكثير منهم فلما صرخوا إلى موسى تضرع إلى ربه ليكشف ما بهم ، ثم صنع لهم بأمر الرب حية من نحاس يراها اللديغ فيبرأ . (ص ٢٥٥ من نفس السفر) .

* * *

هذا بعض ما رواه كتابهم المقدس من سلوكهم فى التيه ، وإنه لغيض من فيض ، عدا بعض الوقائع والغارات على الوادعين ، ينتصرون حيناً ، وحيناً ينكسرون ، وفى كل تلك الحالات لا ترى إلا طباع سوء شوهاء ، حتى ليطالعك دائماً فى تصرفاتهم مصداق ما يردده كثيراً كتابهم ، من أنهم شعب صلب الرقاب ، وأنهم قساة القلوب أشرار ، وصدق الله العظيم إذ يقول لموسى فى شأنهم « فلا تأس على القوم الفاسقين » .

شرور :

وانقضى أمد التيه أو كاد ، وانقرض الجيل الشرير الذى توعده الرب على لسان موسى عليه السلام ألا يريه الأرض التى أمره بالدخول إليها من أجل عصيانه ونكوله عن الجهاد ، ومات كل من كان فى بدء التيه فوق العشرين ، حتى موسى وهرون عدا رجلين كانا فى الطليعة الاثنى عشر التى جاست بأرض كنعان ولم يجبنا كما جبن زملاؤهم ، فكوفئا بالبقاء حتى يريا الأرض المقدسة أحدهما قائد بنى إسرائيل بعد موسى ، وهو يشوع بن نون ، الذى حارب عدداً من المدن وانتصر عليها وأبادها ، وأخيراً استطاعوا أن يقيموا بجزء من فلسطين ، ولكنهم لم يكونوا مقيمين خيراً منهم مشردين ، فقد

ظلت الحروب والمنازعات بينهم وبين جيرانهم لا تهدأ حتى تثور ، وطابع الحروب الاسرائيلية التى سجلتها فصولهم فريد فى الإبادة والتدمير فلما ارتد عليهم سهمهم ، وكيل لهم بكيلهم لم يكن بد من إبادتهم المرة بعد المرة ، حتى طهرت الأرض المقدسة من بقايا أرجاسهم فى القرن الأول من ميلاد المسيح عليه السلام إلى أوائل القرن العشرين .

* * *

لقد كانت شرورهم بغير حدود ، وما ظفروا بعدو — وعدوهم كل من ليس منهم — إلا تمثلت فيهم أسوأ طباع الوحوش الكاسرة التى لا تنصب فحسب على المحاربين ، ولا على بنى الانسان بل كثيراً ما شملت الحيوان والنبات والجماد ، وطائر السوء يجرى من حولهم محدثاً بأنبائهم فلا ترى أحداً من أهل البلاد يثق بهم — جاء فى الفصل الثانى من سفر تثنية الاشتراع ص ٢٩٠ بعد ذكر طلبهم من الملك سيحون المرور بأرضه فى طريقهم إلى الأرض المقدسة ، وأنه خافهم على ملكه وجمع لحربهم ما يأتى : « (٢٢) فخرج علينا سيحون بجميع قومه للحرب إلى يا هص ، (٢٣) فأسلمه الرب إلهنا بين أيدينا فقتلناه هو وبنيه وجميع قومه ، (٢٤) وفتحنا جميع مدنه فى ذلك الوقت وأبسلنا كل مدينة رجالها ونساءها وأطفالها ، لم نُبْقِ منهم باقيا » .

وكذلك صنعوا بعوج ملك باشان وجميع مدنه وما فيها من الرجال والنساء والأطفال كما سجله الفصل الثالث من السفر المذكور .

دستور مقدس للقهر والإبادة :

ونعنى بالدستور المقدس لديهم تلك التعاليم البالغة عنفاً وقسوة

ووحشية ، حتى لا تكاد فطرة إنسانية سليمة تتخيلها حقيقة واقعة ما لم ترها مدونة ومسجلة فى كتابهم المقدس بتفصيل وتأكيد وإصرار ، مع التهديد والوعيد بسوء مصيرهم إن هم أخلوا بتطبيقها ، أو تهاونوا فى الأخذ بها .

إن هذا الدستور اليهودى يجب أن يعلمه كل مواطن ، ويعيه كل عربى ، ليعرف أىّ شر ذلك الذى ملأ قلوب يهود إسرائيل وصدورهم على المواطنين العرب فى فلسطين والشعوب المجاورة ، وليدرك تماماً أصالة ما يبيتون لشعوب المنطقة بأسرها ، مما بدت نذره ، واستطار شرره ، ويوشك لو ترك أن يكون جحيما يتسعر ، فيعلم أن الأمر ليس طارئاً لغاية سياسية وإن تلاقت معه سياسات الاستعمار ، ولا موقوتاً بأمد حرب أو فترة هدنة ، بل هو دين يهودى لإسرائيل تصدر منه ولا تحيد مختارة عنه .

لو كان ما يأتيه اليهود من جرائم بشعة عملا طارئاً يخالونه تثبيتا لحكومة ، أو تأكيداً لسياسة ، أو دفاعاً عن النفس ، ولو أن تلك القسوة التى تمثلوها كانت من وحى الظروف المحيطة بهم أو من آثار الويلات التى طالما كرثتهم على مدى تاريخهم ، أو من باب المعاملة بالمثل لرَجى أن تزول بزوال البواعث عليها ، أما أن تستمد روحها من تعاليم الدين ، وتنزل من نفوسهم منزلة اليقين ، وتسقاها قلوبهم منسوبة إلى الهداة المرشدين ، فذاك الداء الذى لا أمل معه فى دواء ، ولا يرجى منه شفاء ، ما دام للدين أتباع ، وما قامت باتباعه تلك التعاليم .

إن كتابهم الذى يدينون به يأمرهم أن يفرقوا بين الأمم القريبة والبعيدة فى شئون الحرب ، فالمدن من الأمم البعيدة التى يتقدم إسرائيل لمحاربتها يتعبدها ويفرض الجزية عليها ان هى سالمت ، فان حاربته وانتصر عليها فعليه أن يضرب كل ذكر فيها بحد السيف ويغنم باقيها .

أما مدن الأمم القريبة فان لها شأناً آخر ، ان على إسرائيل أن يستأصل كل نسمة فيها ، ومحظور عليه أن يقطع معهم عهداً ، أو تأخذه بهم رأفة ، لأن هذه الشعوب ميراث إسرائيل فان لم يفعل فقد حل عليه غضب الرب وعرض نفسه للإبادة :

جاء عن المدن البعيدة ما يلى : (فصل ٢٠ ص ٣٢٠ من سفر تثنية الاشتراع) :

« (١٠) وإذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها فادعها أولا إلى السلم (١١) فاذا أجابتك إلى السلم وفتحت لك فجميع الشعب الذين فيها يكونون تحت الجزية ويتعبدون لك ، (١٢) وإن لم تسالمك بل حاربتك فحاصرتها ، (١٣) وأسلمها الرب إلهك إلى يدك فاضرب كل ذكر بحد السيف ، (١٤) وأما النساء والأطفال وذوات الأربع وجميع ما فى المدينة من غنم فاغتنمها لنفسك وكل غنيمة أعدائك التى أعطاكها الرب إلهك ، (١٥) هكذا تصنع بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن أولئك الأمم هنا .

وعن المدن القريبة مايلى :

(١٦) وأما مدن أولئك الأمم التى يعطيها لك الرب إلهك ميراثاً فلا تستبق منهم نسمة ، (١٧) بل أبسلهم إبسالا ... ويأتى فى موضع

آخر من نفس السفر تفصيل ذلك (ف٧) على النحو التالى : (١) وإذا أدخلك الرب إلهك الأرض التى أنت صائر إليها لترثها ،واستأصل أمماً كثيرة من وجهك : الحثيين (١) ...سبع أمم أعظم وأكثر منك (٢) وأسلمهم الرب إلهك بين يديك وضربتهم فأبسلهم إبسالا ، لا تقطع معهم عهداً ولا تأخذك بهم رأفة ، ولا تصاهرهم ... (٤) ... فيشتد غضب الرب عليكم ويبيدكم سريعاً ، (٥) بل كذا تصنعون بهم ، وتنقضون مذابحهم ، وتكسرون أصنامهم ، وتقطعون غاباتهم ، وتحرقون تماثيلهم بالنار ، (٦) لأنك شعب مقدس للرب إلهك ، وإياك اصطفى ... اه

وهكذا تكون قداسة الشعب اليهودى المدعاة موجبة لدى الرب ابادة الآخرين ، وجل الله رب العالمين عما يفتريه الظالمون .

استئصال تدريجى :

ثم تمضى الفقرات كى تعد إسرائيل بمزيد من الإبادة والإفناء للغير ، لينعم عينا بما ورث ، معنية بازالة الخوف من قلبه إن حدثته به نفسه ، فان الرب يستأصل الأمم من بين يديه ، ويدفع ملوكها إليه ، فتقول : (١٧) فان قلت فى نفسك هؤلاء الأمم أكثر منى فكيف أستطيع أن أطردهم ، فلا تخفهم ... (٢٢) والرب إلهك يستأصل أولئك الأمم من بين يديك قليلا قليلا ، إنك لا تقدر أن تفنيهم سريعاً

---

(١) ذكر السبعة كما يلى : الحثيين ، والجرجاشيين ، والأموريين ، والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبع امم . الخ .

لئلا يكثر عليك وحش الصحراء ، (٢٣) ويسلمهم الرب إلهك بين يديك ... ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو أسماءهم من تحت السماء : (ص ٣٠٠–٣٠١) .

المهلة إلى فرصة :

فان اضطر أبناء إسرائيل إلى التمهل فى استئصال الأمم الموروثة قليلا ، فليس لهم أن يبقوا أحداً بين ظهرانيهم متى أمكنتهم الفرصة ، فان بقاء أحد من هذه الأمم وخزٌ فى عيون إسرائيل ، وحراب فى جنوبهم ، ومجلبة لنقمة ربهم .

جاء فى (ص ٢٧٩ فصل ٣٣) ما يلى : « (٥٥) وإن لم تطردوا أهل الأرض من وجهكم كان من تبقونه منهم كإبرة فى عيونكم ، وكحربة فى جنوبكم ، يضايقونكم فى الأرض التى أنتم مقيمون بها ، (٥٦) فيكون أنى كما نويت أن أصنع بهم أصنع بكم » .

شق بطون الحبالى :

ثم لا يكفيهم مع هذا مجرد القتل والإبادة ، ولكنهم يفتنون فى صنوف التشفى والتعذيب حتى ليصنعوا بالنساء الحوامل فيما يفتحون من المدن قديما ما صنعوه فى دير ياسين ومدن فلسطين عام ١٩٤٨ ففى الفصل الخامس عشر من سفر الملوك الرابع ذكر لمدينة لم تفتح لهم أبوابها فضربوها وتخومَهَا وكلَّ ما بها ، وجاء فى ذلك مايلى : « وحينئذ ضرب منحيم تفساح وكل ما بها وتخومَهَا من ناحية ترصة ، لأنهم لم يفتحوا له ، وشق جميع من بها من الحوامل » .

توارث الأحقاد :

ولا تخبو نيران قلوبهم بطول الزمان ، وتعاقب الأجيال ، بل تظل مشتعلة الأوار على من لم يحسن لآبائهم فينتقمون منهم فى بنيهم وأحفادهم فى (ص ٤٦٩ من سفر الملوك الأول فصل ١٥) يقول صموئيل النبي الذى أرسله الرب إلى الملك «شاول» ملكا على شعبه إسرائيل : «(٣) فهلم الآن واضرب عماليق وأبسل جميع مالهم ، ولا تعف عنهم ، بل اقتل الرجال والنساء والصبيان والرضع والبقر والغنم والإبل والحمير» .

وسبب هذا البلاء المحيق أن العمالقة اعترضوا آباءهم عند ما خرجوا من مصر ، كما تقول هذا الفقرة رقم (٢) من نفس الفصل ونصها : «هكذا يقول رب الجنود قد افتقدت ما صنع عماليق إسرائيل ، وكيف وقفوا لهم فى الطريق عند خروجهم من مصر» .

اليهود هم اليهود :

ومن الطريف وسط هذه الشرور المستطيرة أن اليهود صنعوا ما تمليه طبيعتهم من حب الدماء وسفكها ، وعبادة الأموال وجمعها ، فلم ينفذوا تماماً وصية صموئيل ، فبعد أن قضوا على جميع شعب عماليق بالسيف ، أبقوا على الملك ليساوموه ، كما أبقوا على خيار الأموال ، غير أنهم لم ينعموا بثمرة هذا الإبقاء — جاء فى الفقرة رقم (٩) ما يلى : «وعفا شاول والشعب عن أجاج (الملك) وعن خيار الغنم والبقر وكل سمين ، والحملان وكل ما كان جيداً ،

ولم يحبوا أن يبسلوها ، ولكن كل ما كان حقيراً مهزولاً أبسلوه »
فكان جزاؤهم أن غضب الرب عليهم ، ونزع ملكه من شاول ،
وحوله إلى ملك آخر (داود) ولم ينج ملك العماليق بل قتله صموئيل
بيده (انظر الفصل المذكور) .

مكافأة بغيّ :

وفى إحدى المدن التى ابتليت بشرهم (أريحا) أبادوا كل نسمة
فى المدينة من الإنسان والحيوان واشعلوا النيران فيها ، ولم يستثنوا سوى
بغيّ وأهل بيتها ، ساعدت جاسوسين لهم وذلك بأمر يشوع الذى خلف
موسى على قيادة بنى إسرائيل ، إذ نادى يشوع قائلا للشعب :
« (١٦) اهتفوا فقد أسلم الرب اليكم المدينة ، (١٧) ولتكن المدينة
بكل ما فيها مبسلة للرب ، ولكن راحاب البغيّ تحيا هى وجميع من
معها فى بيتها لأنها أخفت الرسولين اللذين بعثناهما » — ونفذ ما أمر به
يشوع ، وقال كتابهم ما نصه : « (٢١) وأبسلوا جميع ما فى المدينة
من رجل وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف ...
(٢٤) وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها ، وراحابُ البغى وبيت أبيها
وجميع ما هو لها استبقاهم يشوع وأقامت بين بنى إسرائيل إلى اليوم »
وحقت اللعنة على المدينة عندهم إلى الأبد ، ونادى يشوع بلعن من بنى
مدينة أريحا ، قائلا : ببكره يؤسسها ، وبأصغر بنيه ينصب أبوابها
(ص ٣٥٦ سفر يشوع) .

يتهمون موسى بهذه الشنائع :

وهم لا يبالون فيما يدونون من جرائم أن ينسبوا أمثالها إلى نبى الله

وكليمه موسى عليه السلام ، وأنى لهم أن يبالوا بالأنبياء وكرامتهم ، وفى كتابهم المقدس من القبائح والشناعات المنسوبة زورا إلى الأنبياء ما تنوء بحمله الضمائر مما يزرى بالجهلاء ، فضلا عن الفضلاء ، بله الأنبياء عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، لقد نسبوا إلى موسى غضبه على وكلاء الجيش أن استبقوا النساء وذكور الأطفال ، ولم يبيدوهم ، ولم يرض إلا بأكثر مما فعل فرعون ببنى إسرائيل ، ومن عجب أن يكون صليع موسى بقبيلة آوته وأكرمته ، وصاهرته وعاد منها كريماً لينقذ بنى إسرائيل من العذاب المهين .

جاء فى الفصل الحادى والثلاثين من سفر العدد ذكر حملة بنى إسرائيل على مدين وعودتهم منصورين بالغنائم والسبايا ما يلى : (ص ٢٧٣) – (٩) وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم وجميع بهائمهم ومواشيهم وإناثهم غنموها ، (١٠) وجميع مدنهم مع مساكنهم أحرقوها بالنار ، (١١) وأخذوا جميع الأسلاب والغنائم من الناس والبهائم وعادوا إلى موسى وإليعازر ... (١٤) فسخط موسى على وكلاء الجيش ... (١٥) وقال لهم : هل استبقيتم الإناث كلهن ، (١٦) ان هؤلاء هن اللائى حملن بنى إسرائيل بمؤامرة بلعام على أن يتمردوا على الرب ، (١٧) فالآن فاقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت مضاجعة رجل فاقتلوها ، (١٨) وأما إناث الأطفال اللواتى لم يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم » .

وهكذا يكون تكريم مدين حيث هاجر موسى ، وتكريم صهره النبى شعيب عليهما السلام فى ذكراه ، ولكنهم اليهود وكفى .

الفصل الثالث

فى فلسطين

«ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً» .

صدق الله العظيم

فلسطين من سورية — تطبيق الدستور اليهودى — شخصية أهل البلاد — ذلة الإسرائيليين — شاول يخلصهم — العصر الذهبى : داود وسليمان — لم تخلص فلسطين كلها لهم — بعد سليمان — نهاية إسرائيل — مصر ويهوذا — سبى بابل أو نهاية يهوذا — دعوة محدودة — تبعيتهم وهدم هيكلهم — إبادة — خلاصة تاريخهم — قضاء سورة الإسراء — بعد فلسطين .

فلسطين جزء من سورية أو الشام ، أى الاسمين شئت ، وإن بدهت غرابة العبارة بعض القراء فهى غرابة صناعية نسجتها حديثاً أساليب التفريق الاستعمارى الغربى لوطننا الحبيب ، جزاء «سنمار» للعرب فى مساعدتهم الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، فقد تقسمت انجلترا وفرنسا ذلك الإقليم العربى بعد الحرب ومزقتاه إلى أربع دول تحت نفوذهما : سورية ولبنان تحت النفوذ الفرنسى ، والأردن وفلسطين تحت النفوذ البريطانى ، ولقد استقلت الأجزاء الثلاثة الأولى دولا عربية

بعد ثورات شعبية ضد المستعمرين ، بينما استطاع الدهاء الانجليزى والطمع الصهيونى أن يمهدا لليهود فى الوثوب على فلسطين والتمكين لهم قبل أن يرحل عنها الانجليز .

* * *

وفى التعريف بسورية جاء فى دائرة معارف وجدى وهى مطبوعة فى الربع الأول من القرن العشرين أنها : « الإقليم الواقع شرق البحر الأبيض المتوسط ، واسمها بلاد الشام » ومن ولايات هذا الإقليم فيما ذكره : حلب وبيروت — ومن متصرفاته الكبرى القدس ولبنان (مادة سورية ج ٥) وعن فلسطين يقول : إنها اقليم من أقاليم سورية (ج ٧ مادة فلسطين) .

وفى دائرة معارف البستانى (بطرس البستانى وخلفه) المطبوعة فى أواخر القرن التاسع عشر يذكر حدود سورية قائلا : « يحد سوريا شمالا آسيا الصغرى ، وجنوباً القفر الواقع بينها وبين مصر وبلاد العرب ، وشرقا الفرات والبادية ، وغربا البحر المحيط » ويذكر تقسيمها إلى ولايات ومتصرفيات قريباً مما سبق ثم يقول : « ومتصرفية القدس تعم حكومتها (إدارتها) معظم بلاد فلسطين » (مادة سورية) .

وتقول دائرة المعارف الحديثة : « للأستاذ أحمد عطية الله » : « فلسطين دولة عربية تتكون من المنطقة الساحلية لما كان يعرف أصلا ببلاد الشام » ولاشك أن وصف فلسطين بالدولة جاء بعد تمزيق سورية إلى أجزاء — ثم يقول : « وتتكون فلسطين جغرافياً من منطقة ساحلية (على البحر المتوسط) وهضبة وسطى ، تليها منحدرات البحر الميت » .

هذه الأرض « فلسطين » كانت تسمى فى القديم بلاد كنعان ، وهم قوم من العرب وفدوا من ساحل الخليج العربى ، على نحو ما كانت الموجات البشرية النازحة من قلب الجزيرة العربية إلى أطرافها وماحولها ، حيث الخصب والنماء ، وبخاصة فى العراق وفى الشام .

هاجر إليها من العراق الخليل ابراهيم عليه السلام ، جد العرب المستعربة من ولده اسماعيل ، وجد اليهود الإسرائيليين من حفيده يعقوب ، وجد غيرهم من شعوب المنطقة ، وفيها ببلدة الخليل ثوى جسده الطاهر .

وقصدها موسى ببنى اسرائيل بعد خروجهم من مصر ، ولم يصل إليها بشؤم عصيانهم لأمر الله ، وما كتب عليهم من التيه فى الصحراء ، ثم دخلوها بعد موسى عليه السلام ، ولكن على بحر من الدماء .

وبها ولد المسيح عيسى بن مريم ، وبلغ رسالة الله . وإليها أسرى بمحمد خاتم النبيين ، ثم ارتفع فيها لواء الإسلام ، فجمعت بها الرسالات ، وتمت لها البركات ، وإن لم تخل مع هذا من المحن القاسية فى بعض الأحايين ، على نحو ما سبق بيد الصليبيين ، وما هو واقع الآن بيد اليهود الصهيونيين .

تطبيق الدستور اليهودى :

ومن عجب أن يكون هؤلاء المقتدون بهدى النبى العظيم ، أو هكذا زعموا ، والمأمورون على لسان موسى كما حكى الحق فى القرآن الكريم أن يدخلوا الباب سجدا ، وأن يسألوا الله أن يحط عنهم ذنوبهم ليلشروا دين الله بخلق قويم ، من العجب أن يكونوا أشد الناس قسوة

وتعطشاً إلى الدماء ، مدعين أنهم بذلك مأمورون على ما أشرنا إليه سابقاً ، ولقد طبقوا تلك التعاليم المذكورة فى كتابهم عن إبادة أهل الأرض التى زعموا أن " الرب ورثهم إياها تطبيقاً لاهوادة فيه عند دخولهم أرض فلسطين كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فاذا حلوا بقرية وأفلت أهلها من الفناء التام فلعجز الإسرائيليين عن بلوغ ما يشتهون .

وتقرأ سفر يشوع وهو فتى موسى وخليفته ، وأحق الناس برعاية ماورث عن نبى الله من العدالة والعلم والحلم ، وقد حلت عليه عندهم روح الإله ، حتى ليجرى على يديه من المعجزات بعض ما جرى مثله على يد موسى فلا ترى الا قتلا وحرقا وتدميراً واستئصالا ، وكثيراً ما تجد أمثال هذه العبارة « لم يبق منهم باقياً » فى ختام الحديث عن كل مدينة فتحوها على نحو ما يلى :

« ولم يردد يشوع يده بالحربة التى مدها حتى أبسل جميع سكان العىَ ، وأحرق يشوع العى وجعلها تل" ردم إلى الأبد خراباً إلى هذا اليوم (ص ٣٦١) — وفتح يشوع مقيدة وضربها بحد السيف وأبسل ملكها وكل الأنفس التى فيها لم يبق باقياً ... ثم اجتاز يشوع وجميع اسرائيل معه من مقيدة إلى لبنة ... وقتلوا كل نفس فيها لم يبقوا فيها باقياً ... من لبنة إلى لاكيش ... فافتتحوها فى اليوم الثانى وضربوها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها ... جازر ... لم يبق منهم باقياً ... إلى عجلون ... وأبسل كل نفس فيها ... من عجلون إلى حبرون وافتتحوها وضربوها بحد السيف هى وملكها ومدنها وكل نفس فيها لم يبق منهم باقياً ... إلى دبير حاربها وأخذها هى وملكها وسائر

مدنها وضربوهم بالسيف وأبسلوا كل نفس فيها ولم يبق باقيا .. وضرب يشوع جميع أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها لم يبق باقياً ، بل أبسل كل نسمة كما أمر الرب إله اسرائيل ... وأخذ يشوع أولئك الملوك وأرضهم فى هجمة واحدة ، لأن الرب إله اسرائيل كان يحارب عن اسرائيل » (ص ٣٦٥ — ٣٦٦ من ف ١٠) .

دعوى :

ويجىء عقب هذا فى ختام الفصل الحادى عشر عن تقسيم الأرض قوله : « (٢٢) وأخذ يشوع كلّ الأرض على حسب ما وعد الرب موسى ، وأعطاها يشوع ميراثاً لبنى اسرائيل على حسب أقسامهم وأسباطهم ، واستراحت الأرض من الحرب » .

وفى الفصل الثانى عشر يجىء تسجيل من ضربهم بنو إسرائيل من الملوك مفصلا ، وأرض كل ملك منهم ويختم الفصل بقوله : « جميع الملوك واحد وثلاثون » .

نقضها :

والناظر فى هذا يُخيَّل إليه أن بنى اسرائيل امتلكوا فلسطين أو أكثر منها واستراحوا إلى وجودهم بها ولكن السطر الأول من الفصل الثالث عشر عقب هذا مباشرة يبعد هذا التخيل ، إذ يبدأ بقوله : « (١) وشاخ يشوع وطعن فى السن فقال له الرب إنك قد شخت وطعنت فى السن وقد بقيت أراض للامتلاك كثيرة جداً (٢) وهذه هى الأرض الباقية : كل بقاع الفلسطينيين وكل أرض الجشوريين

(٣) من الشيحور الجارى فى مصر إلى تخم عقرون شمالا وهى للكنعانيين أرض أقطاب الفلسطينيين الخمسة : الغزّى والأشدودى والأشقلونى والجتّى والعقرونى (٤) وأرض العُوِّيين.. (٥) وأرض الجبليين وجميع لبنان (٦) .. كل الصيدونيين سأطردهم من وجه بنى اسرائيل وأنت تقسمها بالقرعة لإسرائيل ميراثاً كما أمرتك » •

ويموت يشوع والأرض التى لم يفتتحوها كثيرة وباقية ، ويمضى خلفاء يشوع كما مضى قسوة وفتكاً وتعطشاً إلى الدماء ، ولكنهم لم يصلوا إلى بغيتهم من إبادة السكان الأصليين ، ليقيموا بأرض أعدائهم مطمئنين .

شخصية أهل البلاد :

بل انك لتحس كثيراً — وأنت تقرأ هذه الروايات التاريخية من وجهة النظر اليهودية ، مغشاةً بدعوى أن الرب إله اسرائيل يحارب عنهم ويسلم إليهم أعداءهم — تحس بوضوح سطوة أهل البلاد الأصليين وبأسهم فيما يرويه الكتاب المقدس ، وترى كيف أنهم لم يذلوا أمام الوافدين ، ولم يسلموا لهم بدعوى حق أوقداسة .

فعدا الوقائع الكثيرة التى انكسر فيها الاسرائيليون بسبب تخلى الرب عنهم لانحرافهم قليلا أوكثيراً ، سجل كتابهم عهوداً كثيرة شربوا فيها كئوس الذل مترعة ، وأذاقهم أعداؤهم من القهر والخسف ألواناً ، تم ذلك فيهم وأيامهم لم تزل مقبلة ، فلما جاء عهد ملوكهم لم يستقر الأمر نوعاً فى عهد داود ، ثم فى عهد سليمان عليهما السلام ، حتى وقع بأسهم بينهم بعد سليمان وزاد الشر بينهم وبين جيرانهم ،

فسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب المرة بعد المرة ، من داخل فلسطين ومن خارجها « ثم لايتوبون ولاهم يذكرون » إلى أن انتهى كل مُلْك لهم بهذه البلاد ، وكما بدءوا حياتهم بها مجتمعين ومحاولين هدم غيرهم ، فقد انتهوا منها محطمين ومشردين .

من ألوان ذلة الإسرائيليين :

وعلى سبيل المثال : فى سفر القضاة وهم الرؤساء الذين ساسوا اسرائيل بعد يشوع وقبل عهد الملوك (ف٢ ص ٣٩٥) أن الرب غضب على بنى اسرائيل بسبب شرورهم وكفرهم بربهم وعبادتهم آلهة أخرى: « (١٤) فدفعهم إلى أيدى المنتهبين فانتهبوهم ، وباعهم إلى أيدى أعدائهم الذين حولهم ، ولم يقدروا بعد أن يثبتوا فى وجوه أعدائهم ... فضاق بهم الأمر جداً (٦) فأقام الرب عليهم قضاة فخلصوهم من أيدى المنتهبين» .

ولكن القاضى كان يخلصهم إلى حين ثم لايلبثون بعده أن يرتدوا فيبيعهم الرب إلى أعدائهم وهكذا ، فباعهم مرة لكوشان ملك آرام ثمانى سنين ، فلما خلصهم أحد القضاة عادوا إلى الشر فباعهم «لعجلون ملك موآب ثمانى عشرة سنة » (ص ٣٩٦) فلما صرخوا إلى الرب أقام عليهم مخلصاً انتقم لهم من عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم عادوا إلى الشر وعاد الرب فباعهم إلى يد يابين ملك كنعان الذى كان ملكاً بحاصور ، فخلصتهم امرأة تسمى دبورة جلست مجلس القضاء (ص ٣٩٨) .

ثم عادوا إلى الشر فدفعهم الرب إلى مدين سبع سنين « (٢)وقويت أيدى مدين على اسرائيل فاتخذ بنواسرائيل لأنفسهم المغاور التى فى الجبال والكهوف والحصون من وجه مدين (٣) وكان إذا زرع اسرائيل يصعد المدينيون والعمالقة وبنو المشرق ويخرجون عليهم:.. (٥) .. ويخرجون عليهم فى مثل كثرة الجراد ...(٦) فذل اسرائيل جداً أمام مدْين وصرخ بنو اسرائيل إلى الرب ... (ص ٤٠١) فأقام لهم مخلصاً يدّعى جدعون ، وبعد موته ارتدوا على أعقابهم ، وعبدوا آلهة أخرى، ولم يذكروا إلههم الذى انقذهم من يد أعدائهم المحيطين بهم فاشتد غضب الرب عليهم وباعهم إلى أيدى الفلسطينيين وإلى أيدى بنى عمون .. الخ . (ف٦ وما يليه من فصول إلى ص ٤١٢) .

* * *

وهكذا يتكرر البيع ويتكرر الشراء،وفى كل بيع يُقْهرون ويذلون وفى كل شراء يقتلون غيرهم ويفسدون .

ولقد بلغ من ضعف الاسرائيليين وذلّهم وهوانهم أمام الفلسطيليين أنهم فى بعض عهودهم لم يكونوا يملكون سيفاً ولارمحاً ، حتى إن الرجل منهم إذا أحب إصلاح منجل أوفاس قصد الفلسطينيين ، وأنهم استعرضوا فى إحدى الضرورات ما عندهم فلم يجدوا غير سيفين مع رجل وولده .

جاء فى الفصل (١٣ ص ٤٦٥ من سفر الملوك) ما نصه : « (١٩) ولم يكن يوجد فى كل أرض اسرائيل حداد ، لأن الفلسطيليين قالوا : لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أورمحاً (٢٠) فكان جميع اسرائيل ينزلون إلى الفلسطينيين كل منهم ليحدد سكّته (حديدة المحراث)

ومنجله وفأسه ومعوله ... (٢٢) فلما حان وقت الحرب لم يوجد سيف ولا رمح فى أيدى جميع الشعب الذين مع شاول ويوناتان ما خلا شاول ويوناتان ابنه » .

وشاول المشار إليه هو الذى مسحه صموئيل النبى ملكاً عليهم ، وهو فى رأى بعض المحققين طالوت الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم « وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ... » .

وفى إحدى المرات التى كان خلاص الإسرائيليين من أيدى العمونيين على يد شاول هذا بلغ من ذلة مدينة من مدنهم[1] أن رجا أهلها زعيم العمونيين أن يقطع لهم عهداً على أن يخدموه فاشترط عليهم ليقطع العهد الذى يريدون قلع كل عين يمنى لهم ، وأن يجعل ذلك عاراً على جميع اسرائيل ... فاستمهلوه وأنفذوا رسلا إلى جميع تخوم اسرائيل ، فتكلموا بهذا الكلام على جميع مسامع الشعب ، فرفع جميع الشعب أصواتهم بالبكاء ... فلما سمع شاول هذا الكلام حل عليه روح الله ، وغضب غضباً شديداً ، واستنفرهم واستنقذهم من يد العمونيين (ف ١١ ص ٤٦١) .

ثم قاد شاول الإسرائيليين فى عدة معارك ضد الفلسطينيين ، وانتصر فى جلها ، وكان فى جيشه داود الذى قتل جبار الفلسطينيين جالوت ، فأكرمه شاول وزوجه بنته ، ثم حقد عليه وأراد قتله مراراً ففر من وجهه فى كلام طويل ... وأخيراً تمكن الفلسطينيون من هزيمة اسرائيل بقيادة شاول ، وقتلوا عددا من قواده وبنيه ، كما قتلوا

(١) واسمها : (يابيش جلعاد) .

جميع رجاله فى ذلك اليوم ، فتحامل شاول على سيفه وقتل نفسه حذراً من أعدائه القلف وتشفيهم فيه ، فلما جاءوه « قطعوا رأسه ونزعوا سلاحه ، وبعثوا يبشرون فى أرض الفلسطينيين ... » .

* * *

وبهذا ختم سفر الملوك الأول (ص ٥٠٠ ف ٣١) ويليه الثانى والثالث ، وفيهما الحديث عن عصر ملكيهما العظيمين داود وسليمان وهما فى الإسلام نبيان كريمان ، أوتيا علماً وحكمة وملكاً ، وفضلا على كثير من عباد الله المؤمنين ، فلننظر صورتيهما فى الكتاب المقدس من جانب ملك اسرائيل فى فلسطين على ماسجله كاتبوه .

العصر الذهبى :

داود وسليمان : وجاء عصر اسرائيل الذهبى ، أو عصر الملوك العظام كما يسميه بعض الكاتبين المعاصرين ، وتملك داود الذى عرفه الإسرائيليون فى مواقفه السابقة على يهوذا فى جزء من فلسطين بالجنوب ، وخلف ابن شاول ويسمى (اشبوشت) أباه على ملك اسرائيل فى الجزء الشمالى من فلسطين ، وذلك فى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل العاشر قبل الميلاد ، وطالت الحرب بين بيتيهما ، ولم يزل داود يقوى وبيت شاول يضعف حتى انتهى بقتل ولد شاول على غير رضا من داود الذى صار ملكاً على جميع اسرائيل .

وأقام داود بحبرون (الجليل) نحو سبع سنين ، ثم اتجه إلى أورشليم حيث افتتحها عنوة من يد اليبوسيين ، وسميت حصن صهيون ، باسم الجبل الذى بنيت عليه ، أو مدينة داود ، وأقام بها .

* * *

ولم تنته المنازلات بين داود وأهل البلاد طيلة حياته وذلك عدا خروج بعض المقربين إليه ومن حوله عليه .

جاء عن أول عهد داود (فى ف ٣ ص ٥٠٦ من سفر الملوك الثانى) مايلى : « (١٧) وكلم أبنير (أحد القادة) شيوخ اسرائيل قائلا : إنكم من أمس فما قبل كنتم تطلبون داود ملكاً عليكم (١٨) فافعلوا الآن لأن الرب كلم داود قائلا : إنى على يد داود عبدى أجرى خلاصاً لشعبي اسرائيل من أيدى الفلسطينيين ومن أيدى جميع أعدائهم » .

ومضت المعارك ، وتعددت الوقائع بين الإسرائيليين وغيرهم ، ومع الأساليب الوحشية التى يفخر كتابهم حين ينسبها إلى داود من تقطيع الشعوب بالمناشير ونوارج الحديد وغيرها ، لم تنته مقاومة الفلسطينيين : فى (ف ٢٠ من سفر أخبار الأيام الأول) عن موقعة مع بنى عمون مانصه : « (٣) وأخرج الشعب الذين فيها وقطعهم بالمناشير ونوارج الحديد والفئوس ، وهكذا صنع داود بجميع مدن بنى عمون ، ورجع داودُ وجميعُ الشعب إلى أورشليم » .

ثم لم تلبث الفقرات من نفس الفصل أن ذكرت عدة حروب تلت ذلك مع الفلسطينيين (ص ٦٨٧) وظلت الحروب مشتعلة لاتكاد تلتهى موقعة حتى تبدأ غيرها ، وجاء فى الفصل الحادى والعشرين من سفر الملوك الثانى تسجيل لبعض الحروب التى وقعت فى أواخر حياة داود ، وقد ضعفت وكاد يقتله أحد الفلسطينيين ، ولم ينقذه إلا أحد رجاله ، واستحلفوه ألا يعرض نفسه للقتل وقال كتابهم :

(١٧) .:. حينئذ استحلف داود رجاله وقالوا لاتخرج معنا إلى الحرب ، ولا تطفىء سراج اسرائيل » .

وفى بقية الفصل نفسه رويت ثلاث وقائع مع الفلسطينين .

* * *

وفى داخل اسرائيل ثار عليه ولده « أبشالوم » وحارب أباه وطارده ، والتقى جيشاهما ، فقتل ابشالوم على غير ما أمر داود ، وحزن الملك على ولده حزناً شديداً (ف١٥ وما بعده ص ٥٢٦) .

كما خرج عليه رجل من سبط بنيامين اسمه (شابع بن بكرى) وشايعه جل اسرائيل ، ولم يبق مع داود سوى يهوذا ، ولكنه قضى على الفتنة وقتل زعيمها : وعاد الأمر إلى داود . (ف ٢٠ ص ٥٣٨) .

* * *

ولما شاخ داود وضعف تعجل ولده (أدونيا) ونصب نفسه ملكاً ، وكاد يتم له الأمر ، ولكن داود أفسد عليه خطته ، واستخلف ولده سليمان فتى فى الثالثة عشرة من عمره ، فجلس على العرش فى حياة أبيه الذى أوصاه بحفظ محفوظات الرب ، والسلوك فى طريقه ، وحفظ رسومه ووصاياه وأحكامه وشهاداته على ماهو مكتوب فى توراة موسى (ص ٥٥١) كما أوصاه ببناء بيت الرب الذى أراده داود فمنعه الله لكثرة ما أراق من دماء ، وفى هذا الحديث العارض فى وصاة داود لولده سليمان تصوير لعصر داود ، فى الفصل (٢٢) ص ٦٩٠ من سفر أخبار الأيام الأول جاء مايلى : « (٧) وقال داود لسليمان : يابنى إنه كان فى نفسى أن أبنى بيتاً لاسم الرب إلهى (٨) غير أنه صار إلى كلام الرب قائلا : إنك قد سفكت دماء كثيرة وباشرت حروباً عظيمة ، فلا تبنى أنت بيتاً لاسمى ، لأنك قد سفكت دماً

كثيراً على الأرض أمامى (٩) فها هو ذا يولد لك ابن يكون رجل سلام ، وانا أريحه من جميع من حوله لأن اسمه سليمان وأمنح السلم والدعة لإسرائيل فى أيامه (١٠) فهو يبنى بيتاً لاسمى وهو يكون لى ابناً وأكون له أباً » .

وأعدَّ داودُ لبيت الرب أموالا طائلة وأخشاباً وحجارة، مساعدة لسليمان ومساهمة فى إقامة البيت .

سليمان :

وقام سليمان بالأمر بعده ، وكان حكيماً فسالم من حوله ، وصاهر ملك مصر الذى أخضع بعض المدن فى فلسطين ، ووهبها مهراً لابنته زوجة سليمان ، كما سنشير إلى ذلك بعد ، واستقر الملك لسليمان ، وبنى للرب بيتاً فى أورشليم أو « مدينة داود » .

* * *

ومع ملك سليمان العظيم ، فلم تمح شخصية أهل البلاد وإن رغب الاسرائيليون محوها جاء فى (ف ٩ من سفر الملوك الثالث ص ٥٧١) عمن بقى من الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين « الذين لم يستطع بنواسرائيل أن يبسلوهم » على حد تعبير كتابهم أن سليمان سخرهم فى الأعمال واستخدمهم فى البناء .

ثورات :

كذلك لم يخل عصر سليمان ممن ثاروا عليه وأعنتوا اسرائيل ، فقد جاء فى الفصل (١١ ص ٥٧٤) ذكر « بعض من ثار على سليمان من أهل البلاد ، وتقول الفقرات مايلى : « (١٤) وأثار الرب فاتنا

على سليمان هدد الأدومى من نسل ملوك أدوم ••• (٢) وأثار الرب فاتنا آخر على سليمان وزون بن ألياداع ••• (٢٥) فصار فاتنا فى اسرائيل كل أيام سليمان ، فضلا عن شر هدد ، وأعنت اسرائيل وملك على آرام ... » .

* * *

وهذا عدا ياربعام الذى كان عبد سليمان ورفع يده على الملك «وكان ياربعام جبار بأس» ••• (٤٠) والتمس سليمان قتل ياربعام فقام وهرب إلى شيشاق ملك مصر ، ومكث فى مصر إلى وفاة سليمان» .

ثم عاد وملك على عشرة أسباط من اسرائيل كما سيأتى قريباً .

هل دانت فلسطين :

وهل خضعت كلها لبنى اسرائيل حتى فى أعظم أيام مجدهم ، وهل تحطمت قوة الفلسطينيين على عهد ملوك اسرائيل العظام ؟

وفى الجواب نسوق ما قرره دارسو الكتاب المقدس المختصون من صعوبة فى معرفة حدود فلسطين من الكتاب المقدس بحيث تتميز تخومها عن تخوم الأمم المجاورة ، ويقول الدكتور بوست فى قاموس الكتاب المقدس بعد كلام فى تحديد هذه الأرض مايلى : «ويعسر علينا معرفة حدود فلسطين ، فانه مع دقة الشرح عن التخوم التى تفصل بين سبط وآخر ، لم يشرح لنا فى الكتاب المقدس شرحاً مستوفى لتميز به تخوم فلسطين عن تخوم الأمم المجاورة لها ويظهر أن هذه التخوم كانت تتغير من جيل إلى جيل» .

ومع هذا فان البحث الدقيق عن عهد داود وسليمان من الكتاب المقدس نفسه يؤيد ما ذكره البستانى فى دائرة معارفه عند الكلام على

فلسطين باعتبارها جزءاً من سوريا إذ يقول : « واستفحل ملك الفلسطيليين فارتاع منهم بنو اسرائيل والفينيقيون » : فتحالف الإسرائيليون والفينيقيون على عهد داود ملك اسرائيل وحيرام ملك صور ، وظل هذا التحالف معمولا به في زمن سليمان ... » .

ويقول في مادة اسرائيل : « وقد عدلت مساحة فلسطين القديمة فبلغت (١٣٫٦٣٠) ميلا إنكليزياً ، فاذا طرحت من هذه (٨١٠) أميال وهي مساحة ما خص الفلسطيليين في جنوب يافا كان الباقي (١٢٫٨٢٠) ميلا ، وهي مساحة الأرض التي كانت للأسباط الإثني عشر عند وفاة سليمان » .

كذلك ذكر الكتاب المقدس أن سليمان تنازل عن عشرين مدينة في الجليل (بفلسطين) لملك صور بلبنان في نظير معاونته له في بناء الهيكل المعروف (فصل ٩ ، ص ٥٧٠ وما بعدها) .

* * *

فمن جملة ما تقدم وسواه ، وباعتراف كتابهم المقدس ، يتضح أن فلسطين لم تخلص كلها للاسرائيليين ، ولم تدِنْ جميعها بالطاعة لهم حتى في أيام مجدهم الذي به يعتزون ، وعهد ملوكهم العظام ، ولم تلته مقاومة أهل فلسطين حتى انتهى كل أثر للغزاة الفاتحين .

« بعد سليمان »

ولما مات سليمان عليه السلام خلفه ولده ، ولكن المملكة انقسمت إلى قسمين :

يهوذا فى الجنوب ، وعليها رحبعام بن سليمان ، وعاصمتها « أورشليم » وظل ملكا عليها سبعة عشر عاماً . وإسرائيل فى الشمال ، وعليها ياربعام بن نباط الافرائيمى ، على أثر عودته من مصر بعد هربه إليها من وجه سليمان كما سبق ، وظل ملكاً بها ثنتين وعشرين عاما ، وتضم عشرة أسباط من بنى إسرائيل .

ويمعن الملكان كلاهما فى الفساد ، وتقوم بينهما الحروب والمنازعات ، وتظل هذه الحروب مشتعلة الأوار ، يرثها خلف عن سلف ، حتى لتقرأ فى ختام الحديث عن كل ملكين متقابلين فى يهوذا وإسرائيل هذه العبارة بنصها غالباً « وكان بينهما حرب كل الأيام » وصدق الله العظيم إذ يقول : « بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

حتى هبت رياح خطر شديد من خارج القسمين ، فغزا ملك آشور[1] (بالعراق) إسرائيل مرة بعد أخرى ، وفى إحدى المرات أخذ عاصمتها « السامرة » بعد حصار دام فى تقديرهم ثلاث سنوات ،

---

(١) مملكة كانت فى بلاد دجلة الوسطى عاصمتها آشور ، ثم نينوى ، اكتسحت الشرق ، ثم سقطت تحت ضربات مادى وبابل سنة ٦١٢ ق.م . منجد

وأجلى الوفاً كثيرة من أهلها إلى آشور ، وأحل محلهم آخرين من بلاده (ص ٦٣٤—٦٣٧ ، فصل ٨ من سفر الملوك الرابع) .

ويذكر مترجم التلمود (د شمعون مويال ج ١ ، ص ٢٤ سنة ١٩٠٩) أن هذه المملكة انتهت بانتصار ملك آشور على السامرة .

* * *

وبعد سنوات صعد ملك آشور على مدن يهوذا (دولة الجنوب) وأخذها فصالحه ملكها حزقيا على جزية ضخمة ، أدى إليه بعضها .. ، ثم دالت دولة آشور ، وخلفها البابليون (الكلدان) فغزوا يهوذا أكثر من مرة ، حتى قضوا على دولتها ، وسبوا أهلها كما سيأتى فى الحديث على سبي بابل المشهور .

مصر ويهوذا :

وفى هذه الأثناء لم تكن هذه البلاد بعيدة دائماً عن متناول ملوك مصر ، ففى عهد سليمان عليه السلام كما سبقت الإشارة أخضع ملك مصر بعض المدن ، ووهبها مهرا لابنته كما جاء ذلك فى الفصل التاسع من سفر الملوك الثالث ص ٥٧١ إذ يقول : « (١٦) كان فرعون ملك مصر قد صعد إلى جازر وأحرقها بالنار ، وقتل الكنعانيين المقيمين بالمدينة ، ووهبها مهرا لابنته زوجة سليمان ، (١٧) فبنى سليمان جازر ... » .

كذلك فى عهد رحبعام بن سليمان ، وقد ذكر عن فساده الشيء الكثير ، صعد شيشاق ملك مصر ، فأخذ المدن المحصنة التى فى يهوذا ، وصار إلى أورشليم واستولى على ما فى خزائن بيت الرب ، وخزائن

دار الملك من كنوز ، وأخذ كل مجان الذهب التي عملها سليمان ، فلما خشع بنو اسرائيل والملك ، وسمعوا كلام شمعيا النبي فيهم ، رجع غضب الرب عنهم فلم يستأصلهم بجملتهم ، وقال على لسان نبيهم : « (٧) ... إنهم قد خشعوا فلا أدمرهم بل أوتيهم بعض النجاة ، ولا ينصب غضبي على أورشليم على يد شيشاق ، (٨) لكنهم يكونون عبيداً له ، ليعرفوا عبوديتي من عبودية ممالك الأرض » .

وكان ذلك في السنة الخامسة لملك رحبعام بن سليمان[1] .

* * *

ولما فرض ملك آشور الجزية على حزقيا ملك يهوذا تمرد عليه بعد قليل ، وتأخر في دفع ما بقي منها ، فأرسل إليه ملك آشور يتوعده ويقول له : إنما اتكلت على مصر وملكها ويذمهما معا[2] .

* * *

وفي خلاف بين ملكي مصر وآشور صعد ملك مصر إلى نهر الفرات ، فعرض له يوشيا ملك يهوذا ، وأصر على لقائه في ساحة القتال ، ولم يقبل نصيحة ملك مصر وسلمه ، فأثخن يوشيا بالجراح ونقل إلى أورشليم ودفن بها ، فأقام الشعب ولده يوآحاز مكانه فظل ملكاً ثلاثة شهور ، ثم عزله ملك مصر وأقام أخاه ألياقيم مكانه وغير اسمه إلى يوياقيم ، وفرض غرامة على الأرض مائة قنطار من الفضة ،

---

(١) سفر الملوك الثالث ص ٥٨٣ وسفر اخبار الأيام الثانى ص ٧٢١ وما بعدها .

(٢) سفر الملوك الرابع ص ٦٣٧ .

وقنطاراً واحداً من الذهب وأحضر يوآحاز أسيراً إلى مصر حيث مات بها[1] .

سبي بابل : (أونهاية يهوذا) :

ولم يمض زمن على الأحداث بين مصر ويهوذا ، وكانت الدولة قد صارت لبابل فى أرض العراق حتى صعد نبوكد نصر (بختنصر) ملك بابل إلى أورشليم واستولى عليها ، وأخذ ملكها وهو يوياقيم الذى أقامه ملك مصر — وأمه وعبيده ورؤساءه وخصيانه ، كما أخذ كنوز بيت الرب ، وكنوز بيت الملك ، وجلا جميع أورشليم ، ولم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض ، وأقام عليهم « متنيا » عم الملك مكانه وغير اسمه إلى صدقيا ، فلم يلبث إلا قليلا وتمرد على ملك بابل ، فعاد اليه بجيوشه حيث ظفر به رجال الملك البابلى وأحضروه موثقاً بالسلاسل ، وقتلوا بنيه وفقأوا عينيه ، ثم تقدم رئيس شرطة بابل إلى أورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك ، وجميع بيوت أورشليم ، وهدم أسوارها ، وأقام الملك على يهوذا والياً آخر يسمى جَدَلْيا لم يلبثوا أن قتلوه وضربوا معاونيه من اليهود ، وكان ذلك سبباً فى تدميرهم ، وتشريد من بقى منهم ، فريق هرب إلى مصر ، وفريق وقع فى الأسر ، ويقول فى هذا كتابهم : « (٢٦) فقام جميع الشعب من الصغير الى الكبير ورؤساء الجيوش وأتوا مصر لأنهم خافوا من وجه الكلدانيين[2] » (ص ٦٥٢ من سفر الملوك الرابع) — وفى سفر

---

(١) سفر الملوك الرابع ص ٦٤٨ ، وسفر أخبار الأيام الثانى ص ٧٢١ وما بعدها .

(٢) الكلدان : منطقة ما بين النهرين فى العراق ، وعاصمتها بابل .

أخبار الأيام الثانى بعد وصف ما حل بيهوذا من بأس الكلدانيين وقتل كثير منهم ، وتخريب البيت وإحراقه وهدم أسوار أورشليم قال فى ص ٧٦٢ : « (٢٠) والذين نجوا من السيف جلاهم إلى بابل ، حيث صاروا عبيداً له ولبنيه حتى ملكت دولة فارس ، (٢١) لكى يتم ما تكلم به الرب بفم أرميا ، حتى استوفت الأرض سُبُوتها ، لأنها سبتت كل أيام خرابها إلى تمام سبعين سنة » .

عودة محدودة :

وبعد هذه السنين السبعين من ذلك السبى الشهير بسبى بابل ، والذى زالت به دولة اليهود فى فلسطين ، عطف عليهم قورش ملك فارس ، وكانت بابل وغيرها قد دانت لحكمه وأذن لليهود بالعودة إلى مدن فلسطين ، وأوصى بمساعدتهم ، وكان ذلك بتدبير من هامان اليهودى مستعيناً بامرأة يهودية أعجب بها ملك فارس ثم تزوجها ، وهى المعروفة باستير صاحبة سفر مسمى باسمها كما سبقت الإشارة إلى ذلك ...

وعاد بنو إسرائيل من منفاهم ، أو عاد منهم من رغب فى العودة ، وساهموا فى بناء البيت وتعمير البلاد (ص ٧٦٢ وما بعدها) .

ويقول البستانى فى تقدير العائدين من اليهود (دائرة المعارف ج ٥ مادة بابل) : « لا يخفى أن عدد الذين رجعوا قليل جداً بالنسبة إلى عدد الذين سُبُوا ، وكان الكهنة ولا ريب أشدّ اليهود رغبةً فى الرجوع ، لأن الهيكل أعيد إلى حاله الأول ، ومع ذلك لم يرجع من فرقهم الاربع والعشرين إلا أربع فرق ، فاستنتج من ذلك أن خمسة

أسداس الشعب على الأقل لم يتركوا مواطنهم الجديدة » ويعلل ذلك بقوله : « لأنه لم يكن ما يغريهم بولاية بعيدة افتقرت بالحروب ، وجيرانها أعداء لها ، فضلا عن أن الحكومة (الفارسية) اعترفت بجنسيتهم فى مواطنهم الجديدة ، وكانت تعاملهم باللطف والرفق » .

تبعيتهم وهدم هيكلهم :

ثم انتقل اليهود إلى حكم اليونان بعد انتصار الإسكندر المقدونى على دارا ملك فارس ، ودانوا بعد ذلك لحكم الرومان الذين استولوا على البلاد ، وتكرر هدم الهيكل وحرقه ، فبنى لهم الوالى الرومانى هيرودوس هيكلا قبل الميلاد بقليل ، ذكر صاحب المنجد أن السيد المسيح ألقى فيهم بعض التعاليم وجاء فى الأناجيل أن المسيح عليه السلام أنذر بخرابه ونقض أحجاره حجراً حجراً (متى ف ٢٣ ، ٢٤ — لوقا ف ١٣) .

وقد وقع ما أنذرهم به السيد المسيح ، وخرب الرومان الهيكل عام ٧٠ م فى إخمادهم لثورة يهودية هدموا فيها أورشليم ، وأزالوا الهيكل تماماً .

وتزعم بعض المصادر(١) متأثرة بالصهيونية أن جزءاً من سوره الخارجى بقى إلى الآن ، ويسمى حائط المبكى يتمسح به اليهود ، على

---

(١) جاء فى المنجد قسم الأدب والعلوم فى مادة أورشليم (الهيكل) مايأتى : بناه سليمان الحكيم (٩٧٥ قم) وهدمه نبوكد نصر ملك بابل (٥٨٧قم) فبنى هيرودوس هيكلا جديداً علم فيه المسيح وخربه الرومان ولم يبق منه إلا حائط المبكى — ويقول فى موضع آخر حائط المبكى جدار السور الذى بناه هيرودوس لهيكل أورشليم القديم ، يقف عنده أتقياء اليهود ويبكون على خراب بيت المقدس. اهـ .

حين أثبتت لجنة دولية محايدة زمن الانتداب البريطانى على فلسطين أن هذا الجزء المدعى عربي خالص ، وليس أثراً للهيكل ولا لسوره الخارجى كما زعم اليهود .

وقد نبهت إلى تلك الحقيقة أخيراً حكومة الأردن فى وثيقة أعلنتها ووزعتها على أعضاء مجلس الأمن ووفود الأمم المتحدة .

وفى بحث للدكتور محمود دياب نشر بمجلة منبر الإسلام عدد ربيع الأول ١٣٨٨هـ حديث هام عن الوثيقة المذكورة التى حصل عليها بجهد مشكور ، وفيه أن حائط المبكى المدعى هو الجدار الغربى للمسجد الأقصى ، وأن اللجنة انتهت إلى أن المسلمين هم وحدهم مالكوه ، فهو جزء الحرم ، وملك الأوقاف ، كما أن الطريق إليه من حى المغاربة ملك للأوقاف ، وخاص بالمسلمين .

إبادة :

وإذا كان اليهود فى خراب أورشليم وهدم الهيكل على يد البابليين قد أجْلِيَ من عظمائهم ورؤسائهم ورجال الحرب فيهم عشرات الألوف ولم يبق منهم سوى كرامين وفلاحين ، وفى ضربة أخرى خرجت بقية الشعب فارين إلى مصر ، أو أسارى إلى بابل — كما سبق بيانه من كتابهم — ففى غزو أورشليم على يد الامبراطور الرومانى وتخريب الهيكل عام ٧٠م يذكر معرب التلمود وشارحه الدكتور شمعون يوسف مويال وهو يهودى مصرى : أن هذا الغزو قتل فيه ما يبلغ المليون والمائة ألف نفس ، وأسر ستة عشر ألفاً أرسلوا إلى رومية ، عدا الأطفال والنساء الذين قضوا أثناء الحصار ، ويقول : إن ذلك

الفتح « كان فى اليوم التاسع من شهر آب (الشهر الحادى عشر من السنة اليهودية) وهو تاريخ مشئوم على الأمة الإسرائيلية ، لأن خراب البيت الأول كان فى نفس اليوم » .

ويتحدث عن بعض الثورات اليهودية التى أحلت باليهود بأس الرومان ، وأبادت من البلاد خضراءهم كما يقول حتى « لم ينج من بنى اسرائيل إلا نفر قليل ممن اختفوا فى بطون المغاور ، واعتصموا فى رءوس الجبال ، ثم هاجروا بعد إلى البلاد الأجنبية » وكان قاعدة أعمالهم فى ثوراتهم قلعة « بتير » وكان خرابها كذلك فى اليوم التاسع من شهر آب بعد هدم أورشليم بنحو نصف قرن . ويقول : إنه آخر عهد الإسرائيليين بالاستقلال السياسى ، وأعظم مصيبة قومية فى تاريخهم (ص ٣٦ ، ٣٧ ج ١ ، من التلمود) .

* * *

وظل سلطان الرومان فى سوريا ، ما ينجم لليهود قرن بها إلا قطعه الرومان ، وما عاودوا بناء الهيكل إلا عاد الرومان إلى هدمه ، وبخاصة بعد أن اعتنق الرومان المسيحية ، وعرفوا لليهود عداوتهم للمسيح ، وما بغوه من شر وعدوان ، حتى سطع نور الإسلام فمحا ظلم الرومان وظلامهم عن البلاد ، ورحب المسيحيون بعدالة المسلمين ، واستقبلوا عمر بن الخطاب بالإجلال ، وعاملهم عمر بالرعاية والتكريم ، وكتب لهم عهد أمان على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ودينهم ، وأشهد على ذلك كبار المسلمين الحاضرين .

فلما أراد عمر بناء مسجد فى الحرم المقدس اتجه ومعه « البطريرك» إلى مكان لا بناء فيه ، وشرع يزيل الكناسة من بعض جوانبه ، ويحمل التراب فى ذيل ثوبه ، قائلا للمسلمين : اصنعوا كما أصنع ، وأقام مسجده المعروف بمسجد عمر فى جزء من الحرم ، ومن بعده بنى الوليد بن عبد الملك المسجد الحالى الكبير المعروف بالمسجد الأقصى . أما اليهود فلم يكن لدولتهم حينئذ وجود ولا لهيكلهم أثر .

خلاصة :

ويتبين مما سبق أن تاريخ بنى إسرائيل فى فلسطين تاريخ دماء ، ولئن قام فيهم الأنبياء يرشدونهم ويصلحون من أمرهم فلقد كان بعض ضحاياهم من هؤلاء الأنبياء .

كما يتبين أن دولتهم فى فلسطين بدأ تكوينها فى عهد شاول (طالوت) وداود ، واستقرت مؤقتاً فى زمن سليمان – وإن لم يخل عصره من فتن وثورات ، وذلك فى القرن العاشر قبل الميلاد ، ثم تمزقت داخلياً عقب سليمان مباشرة ، حتى قُضِى على جزئها الشمالى المسمى بإسرائيل ، وعاصمتها « السامرة » فى القرن الثامن قبل الميلاد ، كما قضى على زميلتها « يهوذا » بالقسم الجنوبى من فلسطين وعاصمتها « أورشليم » فى القرن السادس قبل الميلاد .

* * *

وعاش من عاد من اليهود بعد المحن الطاحنة تحت حكم الفُرس ، واليونان ، أو الرومان حتى قضى عليهم وأبيدوا من فلسطين ، وفرت بقاياهم إلى البلاد الأخرى ، فعادوا إلى تيه فى الحياة بغير

حدود ، يطوفون أو يطاف بهم فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، يقيمون فلا يتوطنون ، ثم يخرجون مطرودين ، ومن السيف هاربين .

قضاء سورة الإسراء :

وقبل أن نمضى مع التاريخ الأوسط والحديث ، فنرى ما كان من أمر اليهود ، ونقص طرفا من حديثهم الدامى ، وتاريخهم الأليم ، نشير إلى نقطة من تاريخهم القديم كثر الحديث الآن حولها بعد عدوانهم على الأرض المقدسة ، والشعب العربى فى فلسطين .

فقد أشارت سورة الإسراء إلى أن الله تعالى قضى عليهم فى الكتاب أنهم يفسدون مرتين ويعاقبون عليهما عقاباً شديداً ، وأن هذه سنته كلما عادوا إلى الفساد عاد الله تعالى عليهم بالعقوبة .

فهل هاتان المرتان فى تاريخهم القديم ؟ أو كما رأى بعض الباحثين أن أولى المرتين ما كان قبل الإسلام وعقوبتها تسليط المسلمين وهم العباد الصالحون ، الموصوفون تشريفاً بقوله تعالى « عباداً لنا » وأن المرة الثانية إفسادهم الحالى بالأرض المقدسة ، وعقوبتهم آتية بحول الله على يد المسلمين ؟

وخلاصة الرأى عندى أن الإفساد حصل أكثر من مرة ، وأن العقوبة المناسبة تمت كذلك وأن أى إفساد جديد داخل تحت قوله تعالى « وإن عدتم عدنا » ، وأن النظر المتأنى فى الآية الكريمة لا يرشد إلى ما يقوله هؤلاء الباحثون ، ولا يساعد عليه التاريخ الصحيح ، الذى لا يضيره أنْ جَهِلَه أو خَلَط فيه بعض المفسرين .

* * *

لقد تعرض بنو إسرائيل فى فلسطين لخطر الإبادة مرات ، وإن من أبرز تلك المرات تسلط مدين عليهم ومعهم أقوام آخرون من ساكنى فلسطين ، لقد جاس المدينيون خلال ديارهم ، وأفسدوا حياتهم ، وأتلفوا زروعهم ، والجئوهم إلى الكهوف والمغاور فى الجبال ، حتى خلصهم جدعون وكسر أعداءهم ، كما سبق ، وما أقرب هذه الواقعة التى جاءت بعد فساد كبير فى بنى إسرائيل ، وكفر وعصيان من معنى هذه الآيات الكريمة : « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علواً كبيراً : فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا » .

ومدين أبو القبيلة من أبناء إبراهيم عليه السلام ، فوصف هؤلاء بقوله تعالى : « عباداً لنا » وصف تخصيص وتشريف .

* * *

كما أن أوضح تلك المرات فى أسفار التاريخ ، فى الكتاب المقدس تفصيلا ، غزوة بختنصر لهم (نبوكد نصر) وهدم أورشليم ، وهيكل سليمان ، وإبادة كثيرين منهم حتى لم يبق إلا سبى أو شريد ، وذلك فى سبى بابل المشهور — وتلك جديرة بأن تكون المشار إليها فى قوله تعالى : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن

يرحمكم » وقد رحمهم سبحانه بعطف ملك الفرس عليهم ، وعادوا إلى فلسطين عودة جزئية كما سبق بيانه .

وإذا كان مسجد سليمان (الهيكل) لم يكن فى المرة الأولى فقد كانت المعابد قائمة من عهد إبراهيم عليه السلام وبنيه من بعده تقرب عليها القرابين(١) .

كذلك من عودتهم إلى الفساد وعودة العقوبة لهم ما كان فى الغزو الرومانى لفلسطين ، وهدم الهيكل بعد بنائه ثانية ، وسبيهم وتشريدهم ، وما تجدد لهم فى الحديث من فساد وعقوبات متكررة .

---

(١) وقد يقال : إن المسجد هو الحرم عامة ، وليس مقصوراً على الهيكل أو المعبد خاصة — وعندى أن ذلك متجه وقريب ، فقد فسر المسجد الحرام فى قوله تعالى : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء .. » بأنه مكة فى رأى كثير من المفسرين ، وليس الكعبة فقط ، ويؤيده التعبير عن الكعبة بلفظ البيت ، وبعد الآية السابقة : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت .. » وفى القرآن الكريم : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً ... وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ... » .

هذا : وتفسير المسجد بأنه الحرم القدسى يوضح الإجماع التاريخى أو ما يشبهه على أن هيكل سليمان لم يكن له وجود عند دخول المسلمين مدينة بيت المقدس (إيلياء) وأن الذى أنشأ المسجد الأول فى هذه الأرض هو عمر بن الخطاب فى جزء من الحرم ، وعرف بمسجد عمر ، وأن المسجد الأقصى المعروف حادث فى زمن الوليد بن عبد الملك الأموى — وقد كان الإسراء إذاً إلى الحرم المقدس ، ومنه تم المعراج .

ومثل هذا ما قرره فضيلة الشيخ عبد الحميد السايح وزير الأوقاف الأردنى فى بحثه المقدم إلى المؤتمر .

بعد فلسطين

اليهود بين مظالم أوربا وسماحة العرب :

دخل اليهود الأرض المقدسة فاتحين ، وخرجوا منها مشردين ، سكنوا الحجاز حيناً ثم أبعدوا عنه ، واستوطنوا أماكن من العالم الإسلامى تحت ظل من سماحة الإسلام ، وهاهم أولاء اليوم لايرعون فيه إلاً ولاذمة ، وأقاموا فى أماكن أخرى من البلاد الأوربية وشردوا عنها فى القرون الوسطى ، وكانت نكبتهم الحديثة على يد هتلر والهتلريين ، واليوم بحول الله سبحانه ينتظرهم سوء المصير بشر أفعالهم فى فلسطين .

وإلى القارىء طرفاً يسيراً مما أوردته المراجع العلمية والتاريخية الموثوق بها عما حل باليهود فى أوربا من النكال والاضطهاد والعذاب الشديد ، لايقابله على النقيض إلا كرم العرب وسماحتهم فى معاملة اليهود ، وإفساح المجال لهم كى يعيشوا آمنين مطمئنين فى كل بلد أشرق جوه بنور الإسلام ، وارتفعت فى سمائه راية المسلمين .

جاء فى دائرة معارف وجدى عن بنى اسرائيل جا بعد ذكر تاريخهم القديم وما أصابهم من المظالم فيه ما يلى :

« قالت دائرة معارف القرن العشرين التى ننقل عنها هذا التاريخ : ولكن لما فتح المسلمون بلاد الرومان حسن حال اليهود فاشتغلوا بالتجارة ناعمى البال فى بغداد والقاهرة وقرطبة وباختلاطهم بالعرب درسوا العلوم والصنائع بنجاح ، ومن أول القرن التاسع صار لهم مراكز يهودية فى القاهرة وفارس ومراكش .

أما ببلاد الغرب... فقد اعتبروا أنهم لشؤم طالعهم سبب كل المصائب النازلة ، والحروب الهائلة ، ولكل فتنة تصيب رجال المسيح...

فكانوا يعتبرون طرد اليهود ونهب أموالهم وقتلهم من أعمال البر والتقوى .

قال المسيو دانتيه : كان اليهود معتبرين خارج دائرة الحقوق العامة فى كل مكان ، محبوسين فى أقسام منعزلة من المدينة ، محكوماً عليهم بوضع علامات مهينة على ملابسهم لتميزهم من غيرهم ، وكانوا لأقل هفوة يُحكم عليهم بالغرامات الباهظة وبالطرد العام ، وفى سنة ١٢٩٠ صدر قرار الملك إدوارد الأول بطردهم من المملكة ، أما فى ألمانيا فكانوا ملكاً للإمبراطرة فحدث أنهم بيعوا أكثر من مرة » .

إلى أن قال : ثم عادت دائرة المعارف فقالت :

« أما فى أسبانيا حيث عاش اليهود تحت حكم المسلمين زماناً طويلا فى هدوء كامل ، فإنه بمجرد أن امتلك بلاد الأندلس فرديناند الكاثوليكى طاردهم كما تطارد الكواسر » .

* * *

ومضى حديث الدائرة عنهم وما حل بهم فى فرنسا وبولونيا وليتوانيا وروسيا وغيرها بمالا يبعد عن هذا ثم قالت : « أما فى روما فكان على اليهودى إن أراد الانتقال إلى بعض الجهات ليمكث عشرة أيام أن يأخذ رخصة من السلطة الكهنوتية ، وكان محرماً عليهم أن يتخذوا كنائس أوديورا ، أويتحدثوا مع المسيحيين أويصاحبوهم ، ومن يخالف يحبس ويغرم — صدر هذا الأمر سنة ١٨٦٥م » .

بمثل هذا وأكثر منه تحدثت دائرة معارف بطرس البستانى (مجلد ١٢ ص ٦٧٢ وما بعدها) — فقد جاء فيها بعد كلام طويل عن تاريخهم القديم ، وما أصابهم فيه ما يلى :

« فلما جاء الإسلام وأبوا إجابة الدعوة كانت لهم بيثرب وخيبر وغيرهما مواقع شديدة مع صاحب الشريعة غلبوا فيها ، ورضخ بعضهم للجزية ، وأسلم بعضهم فكان منهم مسلمون لهم شأن فى تاريخ الإسلام ، وكان منهم من دان بالإسلام وهو ينوى تفريق كلمته .

« فلما امتد ملك الإسلام شرقاً وغرباً وأذلوا الفرس والروم لم يكن للمسلمين وطأة ثقيلة على اليهود ، بل كانوا حيثما حلوا حل معهم الفرج لبنى اسرائيل ، فبات اليهود وهم ناقمون شدة الجور والعسف من حكامهم السابقين يتلقون المسلمين بأرحب الصدور ، بل يعينونهم بما أمكن على قهر مضطهديهم ... وبات المسلمون وشرعهم يأمرهم أن يعاملوا بالحسنى أهل الذمة إذا دفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون يرفعون الحيف عنهم ، ويفسحون لهم فى المجال ، فكانت لهم أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية فى الشام والأندلس ، والعباسيين فى العراق وملوك أفريقية وبلاد المغرب أيام راحة وأمن لم يتخللها من المظالم إلا النزر اليسير » .

وتكلم عن عز اليهود فى هذه الممالك ثم قال :

« وأما فى مملكة بيزنطة والممالك القائمة على أنقاض الدولة الرومانية الغربية فى أوربا فكانت المظالم عليهم شديدة ، والمغارم عديدة ... »

وأفاض فى بيان سوء حالهم لبضعة قرون بحيث كانوا يلجئون كثيراً إلى شراء حق الحياة والإقامة والاتجار ، وعن انجلترا بالذات قال مانصه :

« فإنهم لقوا فى انكلترا البلاء الأصم لعهد ملكها ريتشارد الأول ، فكان يوم تتويجه سنة ١١٨٩ يوم ذبح لليهود فى يورك ... ولم يزل

الملوك من بعده يبالغون فى تعقبهم إلى أن أجلاهم أدوارد الأول من كل مملكته — وأصابهم مثل ذلك فى فرنسا فطردهم شارل السادس من بلاده .

ثم قال : «ولما فشا الطاعون فى أوروبا (١٣٤٨ — ١٣٥٠) قام عليهم أهل ألمانيا قومة واحدة فكانوا يسوقون الألوف منهم يقتلونهم ويحرقونهم رجالا ونساء وكباراً وصغاراً لزعمهم أن اليهود تسببوا فى تفشية الوباء بالقاء السم فى المياه — وحذا أهل سويسرة حذو الألمان ... ولكنهم اجترأوا بطردهم ... وذبحوا فى أكثر مدن أسبانيا سنة ١٣٩١ وفى سنة ١٤٩٣ طردوا منها ، فجلت ٧٠,٠٠٠ عائلة منهم إلى البرتغال فكان هذا الجلاء وبالا عليهم ، إذ أجلاهم الملك عمانويل سنة ١٤٩٥ واستبقى قسرا أولادهم من بنى (١٤ عاماً) فأقل وأرسلهم إلى الجزر القاصية ، ينشأون على الديانة المسيحية ، فكثر فى تلك الأثناء عدد اللاجئين من اليهود إلى الممالك العثمانية ، وذهب فريق منهم إلى بولونيا » .
ثم قال : « وكانوا يسترضون أرباب الملك والدولة بالمال فتفتح لهم أبواب البلاد التى طردوا منها » .

ثم تكلم عن تحسن حالهم فى القرن التاسع عشر فى أوروبا ، وبخاصة فى النصف الأخير ... ولكن دائرة معارف البستانى لم تعرض لما حل بهم فى القرن العشرين على يد النازيين ، ولم يسجله كاتبوها ولعلهم لم يدركوه وإن علمه المعاصرون .

* * *

أما تهافتهم اليوم على أرض فلسطين أرض الميعاد كما يزعمون يفسدون ويسفكون الدماء ويبقرون البطون ، وينسفون القرى ومن فيها فهو عود بهم إلى حتف جديد ، وعذاب شديد .

* * *

إن محاولتهم العودة بفريق منهم ليقيم دولة فى فلسطين على حساب شعبها العربى ، وأشلاء الضحايا من أصحابها الشرعيين لهو على الحقيقة هتك للمستور من أمرهم ، وكشف للخفى من نواياهم نحو العالم كله فى اشعال نار الفتنة ، وتأريث ضرام حرب نووية ماحقة ، يقفزون بعدها من فلسطين إلى مركز المسيحية فى أوربا — كما دونته وثائقهم (البروتوكلات) حيث تقوم حكومتهم المرتجاة لتحكم العالم على مبادىء التلمود والتوراة .

ولم يعد ذلك خافياً من أمرهم والحمد لله ، ومواقفهم الآن وشنائعهم تتحدى العالم كله ، وإنه لإيذان بحول الله وقوته بتنفيذ وعيد الله فيهم ، وبعثه عليهم من يسومهم سوء العذاب مهما بدا من قوتهم وقسوتهم ، ومساعدة قوى الشر فى العالم لهم ، وسيكون ذلك بيد المخلصين من رجال العرب الأمجاد إن شاء الله «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

* * *

أما لماذا خُصَّ اليهود من بين أصحاب الديانات السماوية ، بل والنحل الأرضية بهذه المذابح وهذا الشتات ، ولماذا لم يقروا فى وطن سعوا إليه وأقاموا فيه على نحو ما تقيم الشعوب وتستقر الجماعات ، وهل سرّ ذلك إليهم أو إلى غيرهم من عباد الله ؟ فلعلنا نجيب عليه فيما يلى من حديث .

الفصل الرابع

الشتات اليهودى

« شَعْبٌ سَيَسْكُنُ وَحْدَهُ ، وَلَا يُحْسَبُ بَيْنَ الأُمَمِ »

(سفر العدد ص ٢٦)

قطيعة نفسية — فى مصر — وحدهم — لا اختلاط ولا مصاهرة — من أجل المال — طرد الزوجة والأولاد — من أجل خبز وماء — مقاطعات قدسية — ثمرة خبيثة — دعوى امتياز — فضل إيمان — حقارة كفر — ضلال عزاء — إغراء بالدماء — دفاع مهيض .

قطيعة نفسية :

فى الجواب عن سر ما ينزل باليهود من محن وشتات نذكر هذه القطيعة النفسية بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، فمثل هذه الفعال التى عرضنا طرفاً منها مستقاة من كتابهم المقدس، والتى فرضت عليهم صداماً دائماً مع الغير ، ودفعت بهم إلى صدام آخر فيما بينهم ، والتى لاتصدر إلا عن طباع فى الشر عريقة — هذه الفعال جديرة أن تباعد بين اليهود وسواهم ، ولقد كانوا بالفعل بعيدين ، تنبو مشاعرهم عن الوطن الذى يؤويهم ، كما تنبو عنهم مشاعر هذا الوطن .

فى مصر :

لقد ساكنوا المصريين أكثر من أربعة قرون ، وكان منهم وزراء وعظماء ورجال مال ، وكان يوسف عليه السلام على خزائن الدولة من أول أمرهم ، وصاحب الحظوة عند عزيز مصر ، ولكن بنى إسرائيل برغم ذلك ظلوا خلية غريبة عن جسم الأمة ، حتى انتهى أمرهم إلى بلاء شديد ومحنة قاسية على يد فرعون وملئه ، فبعث الله نبيه موسى لينقذهم من العذاب المهين .

وقد ذكرنا فيما مضى ما سجله كتابهم عند قدوم إخوة يوسف بشقيقه ، ودخولهم عليه وتأثره الشديد وتجلده ، وتقديم الطعام ليوسف وحده ، ولإخوته وحدهم ، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم، وعلله كتابهم بأن من الرجس عند المصريين أن يأكلوا مع العبرانيين(١) – وإذا دل هذا على ترفع المصريين عليهم حتى لم يقبلوا مخالطتهم فى طعام وهم نزلاء بينهم مع كرم المصريين المأثور ، فالدلالة على القطيعة النفسية بين الفريقين واضحة لا تحتاج إلى بيان .

يسكنون وحدهم :

ومع تكريم عزيز مصر ليوسف ، وترحيبه بيعقوب عليه السلام وبمن معه من آل بيته ، وحثه يوسف على إسكان أقاربه بأجود أرض مصر ، ورغبته إليه فى أن يقيم يوسف من إخوته وكلاء على ماشية فرعون إن علم فيهم ذوى حذق ، فقد أوعز يوسف إلى إخوته بأن يقولوا لفرعون عن حرفتهم إنهم رعاة غنم قائلا : « (٣٤) لكى تقيموا

(١) ص ٧٦ من سفر التكوين ف ٤٣ فقرة ٣٢ .

بأرض جاسان (الشرقية) لأن كل راعى غنم هو عند المصريين رجس» ...

«وأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر فى أجود موضع منها ، كما أمر فرعون»(١).

ولعل اختيار هذا المكان إلى جانب جودته روعى فيه قربه من حدود مصر الشرقية ، وسيناء المطلة على أرض كنعان من حيث ورد يعقوب وبنوه ، كى يقيموا ما أحبوا الإقامة ، ويرحلوا متى شاءوا الرحيل .

لا اختلاط ولا مصاهرة :

وكتابهم يحذرهم من مخالطة غيرهم أومصاهرتهم ، وينذرهم بالخذلان وعدم النصر على الأعداء إن هم خالفوا ، بدلا من أن يرشدهم إلى التمسك بدينهم ودعوة غيرهم إلى هداه ، وكأن شعبهم (المختار) ليس من طينة البشر ولا من تراب الآدميين .

جاء فى سفر يشوع فتى موسى والمقدم فى بنى اسرائيل بعد عهد موسى : أنه لما طعن فى السن جمع شيوخ إسرائيل وقضاتهم وعرفاءهم وذكرهم بما فعل الرب إلههم بكل تلك الأمم لأجلهم وأوصاهم بالتمسك بتوراة موسى ، وألا يختلطوا بهذه الأمم الباقية ولا يذكروا إسم آلهتهم قائلا : «(١١) فاحتفظوا لأنفسكم جداً بأن تحبوا الرب

---

(١) ص ٨٢ ، ٨٣ من سفر التكوين .

إلهكم (١٢) ولكن إن ارتددتم واختلطتم ببقية هؤلاء الأمم الذين بقوا معكم — وكأن الاختلاط يساوى الردة أويقرن بها — وصاهرتموهم ودخلتم بينهم ودخلوا بينكم (١٣) فاعلموا أن الرب إلهكم لايعود يطرد أولئك الأمم من وجهكم ، بل يصيرون وهقا ومعرة وسوطاً على جنوبكم ، وشوكاً فى عيونكم حتى تضمحلوا من هذه الأرض الصالحة التى أعطاكم الرب إلهكم .

من أجل المال :

وقد يكون مفهوماً أن تكون الوصية لهم ألايختلطوا بمن يضر عقائدهم صيانة لدينهم ، فيكون ذلك مقبولا ، أوبمن ليس من جنسهم حفاظاً على دم الشعب المختار فى زعمهم فيكون وجهة لهم ، أما أن يكون رفض الاختلاط والمصاهرة حفاظاً على المال أن يخرج إلى غيرهم وإن كان من الغير اكتسبوه ، بل أن يخرج فيهم من بيت إلى بيت وإن كان من صميمهم ، فتلك قطيعة لهم فيما بينهم تضاعف بآثارها من دوافع القطيعة بينهم وبين غيرهم .

جاء فى سفر العدد ف ٢٦ ص ٢٨٣ ما يلى : « (٨) وكل بنت ترث ميراثاً من أسباط بنى إسرائيل فلتكن زوجة لواحد من عشيرة سبط آبائها ، لكى يرث بنو إسرائيل كل منهم ميراث آبائه (٩) ولا يتحول ميراث من سبط إلى سبط آخر ، بل يحافظ كل سبط من بنى اسرائيل على ميراثه » .

ثم يُعطى لهذا الأمر قداسته بالنص على أنه أمر الله على لسان موسى فيقول : « (١٣) هذه هى الوصايا والأحكام التى أمر الرب بها بنى إسرائيل على لسان موسى فى صحارى موآب على أردن أريحا » .

وذلك برغم أن موسى نفسه تزوج من خارج بنى إسرائيل غير مرة ، فقد تزوج من مدين قبل رسالته ، على ما هو معلوم من القرآن الكريم ، كما اتخذ زوجة حبشية ، وقد لامه بعض المقربين على التزوج بها فاشتد غضب الرب على اللائمين حتى استشفعوا بموسى فشفع لهم (٢٣٩ ف١٢ من سفر العدد) .

طرد الزوجة والأولاد :

وتأخذ هذه المقاطعة اهتماماً كبيراً ، وتؤخذ المواثيق والعهود عليها ، باعتبارها سبيلا إلى حفظ الدم طاهراً ، والتمكين من خير الأرض ، والاحتفاظ بها للعقب : جاء فى (ف ٩ من سفر عزرا) أن الرؤساء شكوا إليه أن شعب إسرائيل والكهنة واللاويين لم ينفرزوا عن شعوب الأرض ورجاساتهم « (١٢) لأنهم اتخذوا من بناتهم لهم ولبنيهم فاختلط الدم الطاهر بأمم الأرض » — وأنه مزق ثوبه ورداءه ونتف شعر رأسه ولحيته ، ولبث متحيراً وناجى الرب إلهه واعتذر إليه .. ثم نادى فى قومه : « (١٢) والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ، ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ، ولا تطلبوا سلمهم ولا خيرهم إلى الأبد ، لكى تتمكنوا وتأكلوا خير الأرض وتورثوا أعقابكم مدى الدهر » (ص ٧٨٠) .

وتمضى الوصايا إلى غايتها فلا تقصيرُ التحرز من الاختلاط والمصاهرة على ما يجيء مستقبلا ، بل تمتد إلى الزوجة والأبناء الحاليين ليُطردوا من بين إسرائيل ، معتبرة أن هذه المصاهرة اعتداء على الرب نفسه ، ففى الفصل العاشر أن عزرا صلى واعترف باكياً وهو منطرح قدام بيت الله ، واجتمع إليه جمع كثير جداً من الرجال والنساء والأولاد وبكوا بكاء شديداً ، واعترفوا بلسان بعضهم بأنهم تعدوا على إلههم بأخذ نساء غريبات من أمم الأرض ، وتعاهدوا على إخراج جميع النساء وأولادهن ، ونادوا فى الشعب منذرين من تأخر بإبسال كل ماله وفرزه عن الجماعة ... وتم فحص الذين اتخذوا نساء أجنبيات وأعطوا أيديهم على أن يخرجوا نساءهم ، وقربوا كبشاً من الغنم عن إثمهم ، وسجل الفصل أسماء المعتدين ، ثم قال فى ختامه : « جميع هؤلاء اتخذوا نساء أجنبيات وكان منهن من ولدن بنين » (ص ٧٨٣) .

من أجل خبز وماء :

إلى جانب ما سبق ترى فى الكتاب مقاطعات أبدية لأسباب غير قائمة ، ولا يظن بها أن تقوم إلا فى نفوس يهودية ، يؤخذ بها الأبناء جزاء ما فعل الآباء .

جاء فى أول الفصل (١٣) من سفر نحميا قوله :

« (١) فى ذلك اليوم قرىء فى سفر موسى على مسامع الشعب ، فوجد فيه مكتوباً ألا يدخل العمونيون والموآبيون فى جماعة الله إلى

الأبد (٢) لأنهم لم يتلقوا بنى اسرائيل بالخبز والماء ، بل استأجروا عليهم بلعام ليلعنهم ، فحول إلهنا اللعنة بركة » .

وبادر الشعب إلى تنفيذ هذه المقاطعة لا على من ذكروا فحسب ، بل على كل من ليس منهم ، وتقول الفقرة بعد ذلك « (١٣) فلما سمعوا الشريعة فرزوا كل دخيل من إسرائيل» ويمضى السفر يعدد مواقف صاحبه « نحميا » وبلاءه فى هذا السبيل من طرد من كان قريباً لأجنبي أوتزوج بأجنبيات . (ص ٨٠٨ وما بعدها) .

مقاطعات قدسية :

كذلك ترى فى الكتاب نوعاً طبقياً من المقاطعات المادية ، فالطعام الذى يقدم قدسا للرب يكون للكهنة وخاصتهم الأقربين ، ولا يأكل منه سواهم ، وأكل الأجنبي من طعام مقدس يدنسه ، ويكون جناية إثم على آكله ، ومن أكل منه سهواً كان عليه أن يزيد على مقدار ما أكل خمسه ويدفع القدس إلى الكاهن ، ولا يتحمل جناية بأكله من قدس الرب .

جاء (فى ف ٢٢ من سفر الأخبار) أحكام عن تقديم القرابين ، وما يقدم كفارة كذبيحة الخطأ والإثم ، وما يقدم شكراً على السلامة ثم تكلم عمن يأكل منها فقال : « (١٠) وكل أجنبي لا يأكل قدسا ، ونزيل الكاهن وأجيره لا يأكلان قدسا (١١) فأما إذا اشترى كاهن إنساناً بماله فهو يأكل من القدس ، وكذا مولود بيته إنهما من طعامه يأكلان (١٢) وأى ابنة كاهن تزوجت برجل أجنبي فهى لا تأكل

من قربان الأقداس ... (١٤) وأى إنسان أكل شيئاً من الأقداس سهواً فليزد عليه خمسه ويدفع القدس إلى الكاهن (١٥) ولايدنسوا أقداس بنى إسرائيل التى يقدمونها للرب (١٦) ولايتحملوا جناية إثم بأكلهم القدس لأنى أنا الرب مقدسهم » .

وصدق الله تعالى إذ يقول : « يأيها الذين آمنوا إنِ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .

ثمرة خبيثة :

هذا الانفصام النفسى الذى جناه اليهود ثمرة خبيثة لزرع خبيث من فعالهم ، وذاك الذى فرضوه على أنفسهم بالنسبة لغيرهم ، ثم جر أذياله إلى الصلات فيما بينهم ، إلى جانب مادأبوا على ترداده فى كتبهم من أنهم الشعب المختار ، يحارب عنهم رب الجنود، وما يسلمهم إلى أعدائهم إلا ليرجع شعبه إليه فيسمع نداءهم وينصرهم ويخذل أعداءهم : كذلك ما عرف عنهم من تحرشهم بدماء غيرهم من الآدميين أوالأميين ، وأنهم الوارثون لأمم الأرض بعد فسادها ، وما يتبع ذلك من السعى الدائب لهدم المجتمعات وتقويض أركانها ، كل هذا جعلهم غرباء نفسيا عن كل وطن يتَحيَّوْن فيه ، أعداء لكل مجتمع يعيشون بين ربوعه ، أحرياء بكل مانالهم وينالهم من عسف واضطهاد وتشريد .

ومع وضوح قضيتهم بحيث يكفى لبيان عوارها مجرد إيرادها ، ومع أنها تنادى على سوئها وسوآتها بالنداء العالى ، لكننا سنقف قليلا

مع دعوى صلاحهم واختيار الله لهم ، ثم مع تحرشهم بدماء غيرهم واستباحتهم لها ، وعلى نهجنا سنشهدهم على أنفسهم :

القضية الأولى :

أما القضية الأولى فخلاصتها فى وضوح وإنصاف كلمتان : فضل إيمان ، وحقارة كفر .

ا — فضل إيمان :

فدعوى اختيار الله تعالى لليهود وتفضيلهم على غيرهم ، تلك الدعوى التى يرددها كتابهم المقدس دائماً بما يصعب حصره هى فى الحقيقة لَبْسٌ للحق بالباطل ، ومزج بين مختلفين لايتقاربان ، فقد اختار الله المؤمنين من بنى اسرائيل فى جملة من اصطفى من المؤمنين ، وفضلهم برسالة موسى وهرون والأنبياء فيهم على الوثنيين ، وعلى جاحدى الرسالات ومنكريها ، لابينوة خاصة ودم مختار ، فالكل لآدم وآدم من تراب ، فمن استقام على الطريقة فهو فى رضا الله ، وإن كان من مصر التى طردتهم ، أوآشور التى داستهم ، أو كان من بنى جلدتهم ، وكتابهم الذى أكثروا فيه من دعوى الخصوصية ينص على هذه الحقيقة فى غفلة من تحريفهم وتبديلهم ، فيقول نبيهم أشعيا فى تعرف مصر إلى الرب ، ورجوع أشور إليه ، واقتفاء اسرائيل طريقهما مايلى : (٢٣) فى ذلك اليوم يكون طريق من مصر إلى أشور فتأتى اشور إلى مصر ، ومصر إلى اشور وتعبد مصر الرب مع اشور (٢٤) فى ذلك اليوم يكون إسرائيل ثالثاً لمصر وأشور ، وبركة فى وسط

الأرض (٢٥) فيباركه رب الجنود قائلا : مبارك شعبي مصر ، وصنعة يدى أشور ، وميراثى اسرائيل » (نبوءة أشعيا ف١٩ ص٢٤٧) .

ب - حقارة كفر :

فإذا انسلخ اليهود عن رسالات الأنبياء فقد كفروا بالله ، وضلوا بعد علم ، وغضب الله عليهم ولعنهم ، وجعلهم شراً من الوثنيين ، إذ جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل .

هذا عهد أنبيائهم إليهم ، وهذا كتابهم شاهد عليهم ، وفى عهد الله لسليمان الذى مضى ذكره شاهد واف بمعناه فى الإيمان والكفر .

وهكذا يقول يوحنا (يحيى عليه السلام) للظالمين منهم : « (٧) يا أولاد الأفاعى من دلكم على الهرب من السخط الآتى (٨) أثمروا ثمرا يليق بالتوبة (٩) ولا يخطر ببالكم أن تقولوا إن أبانا إبراهيم ، لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم (١٠) ها إن الفأس قد وضعت على أصل الشجرة ، فكل شجرة لاتثمر ثمرة جيدة تقطع وتلقى فى النار » (متى ف ٣ ص ٥) .

ومثل ذلك قال السيد المسيح فيا روى عنه مخاطباً الكتبة والفريسيين المرائين : « (٢٢) أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم » (متى ف ٢٣ ، ص ٤٤) وفى محاورة أخرى يقولون له : (٣٩) إن أبانا إبراهيم ، فقال لهم يسوع : لو كنتم بنى إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ، (٤٠) لكنكم الآن تطلبون قتلى

وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله ، وذلك لم يعمله إبراهيم ، (٤١) أنتم تعملون أعمال أبيكم ، فقالوا له نحن لسنا مولودين من زنى ، وإنما لنا أب واحد وهو الله ، (٤٢) فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى ... ، (٤٤) أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تبتغون أن تعملوها » (يوحنا ف ٨ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣) .

* * *

وهكذا بالعهد القديم والعهد الجديد ، كذلك بالمنطق النظرى والواقع العملى سقطت — وإنها لساقطة من قديم — دعوى امتياز اليهود ، وانتقاء دمائهم من سائر الدماء .

ضلال عزاء :

ولن يفيد اليهودَ شيئاً ما يُعَزّى به أحبارُهم جمهورَهم الشريد ، حينما يجعلون من فاتحة دعائهم فى بعض صلواتهم تكرار دعوى الصلاح وإرث الأرض ، لأنهم فرع غرس الله تفاخراً ، ولندع الحديث والتعليق لمترجم التلمود[1] وشارحه إذ يقول ما نصه فى (ص ٥٨ ج ١)

(١) الدكتور شمعون يوسف مويال يهودى مصرى سنة ١٩٠٩ وليس تحت يدنا سوى الجزء الأول .

« الفاتحة »

« لم نجد نسخة مطبوعة أو مكتوبة أو مترجمة من سفر بيرقى أبوت إلا وهى مصدرة بالفقرة التالية بصفة فاتحة تلاوتها واجبة قبل تلاوة كل فصل من فصول هذا الكتاب ... وإليك نص الفاتحة :

« لكل إسرائيل نصيب فى العالم الآتى — كما قيل — وقومك كلهم صالحون ، وسيرثون الأرض إلى الأبد ، لأنهم فرع غرسى ، صنع يدى للافتخار » .

وهذه الفقرة لم تحسب فى عداد متون هذا السفر ، لأنها بالحقيقة جزء من المتن الأول المصدر به الفصل الحادى عشر ... والذى يلوح لى أنها دخلت بصفة مقدمة على البيرقى أبوت فى عهد تعاقب المظالم والاضطهادات على الأمة الإسرائيلية ، وخصوصاً فى الأعصر المظلمة ؛ لأنها تَعِد المحرومين ... بنعيم عالم آخر لهم فيه نصيب وامتياز يعادل حرمانهم الحالى ... ثم استعملت كفاتحة لكل ما يتلى من المشنة (١) بقصد التعبد » — ويستطرد فى الشرح والتعليق ، ثم يقول (فى ص ٥٩) : من تفسير العلامة مندل كوهين الذى علقه على هذه المقدمة « جرت العادة أن تقال هذه الفاتحة قبل كل فصل من فصول الآباء التى ترتهت

---

(١) المشنة بمنزلة متن التلمود وشرحه يسمى الجيمارة ، والمجموع يسمى التلمود ، وهو يحتوى العبادة والقوانين والعلوم التى يعرفها الأئمة فهو مجموعة معارف تلك الأزمان — وهو متعدد : أورشليمى ، وبابلى يختلف طولا وقصراً . (من الديباجة ص ٤ ومن ص ٤٩) .

تلاوة كل واحد منها فى كل من السبوت الستة الواقعة بين عيد الفصح وعيد الأسابيع » .

القضية الثانية :

وثانية القضيتين هى تلك التعاليم التى تستهين بدماء الآخرين ، بل تغرى بها ، فعدا ما سبق بيانه من دستور الإبادة الجماعية للأمم التى جُعِلت لإسرائيل ميراثاً ، ترى هذه الروح الشريرة وهى تسرى فى غير مظانها سريان السموم فى الجسم السليم ، ففى بعض فقرات التلمود والتى تضم حكما وتجارب ووصايا ، قد ترى الكثير منها إنسانياً معجباً ، تجىء نفثات المعانى التى انضمت عليها حنايا الضمائر تتلوى لتقتل كل معنى سليم ، وعلى سبيل المثال جاءت المشنة الثالثة عشرة (ص ٨١ ، ج ١) وهى أربع جمل تضمنت أربعة معان فى التزهيد فى الشهرة الزائدة ، وحفظ الناموس ، وطلب العلم ، والعفة عن اغتصاب المناصب . يقول نص المشنة فى طلب العلم : ومن لم يتعلم عند استطاعة التعليم فقد استحق الموت — ويعلق شارح النص فيقول : لم يقصد من عبارته هذه الحكم بالإعدام على من لم يحب العلم ، بل هو يشير إلى المبدأ الراسخ فى أذهان الأئمة السابقين له واللاحقين ، فقد ورد غير مرة فى التلمود أن الأمى محسوب فى عداد الأموات وإن كان حياً .

ويمضى قائلا : وقد تغالى بعض علماء التلمود فقال : « يحل بقْرُ بطن الأمى كما تبقر بطون الأسماك حتى فى يوم الصوم الكبير الواقع فى أحد أيام السبوت » .

ويعلق على هذا منتقداً ومدافعاً بما يخاله مقنعاً فيقول : وفى ذلك من المبالغة والمغالاة ما لا يخفى على ذوى الألباب ، وإن تذرع به بعض خصوم التلمود للتمويه على الأذهان بأنه شريعة بربرية متوحشة ، لأن ما الموجب فى حصر تنفيذ هذا الحكم فى يوم قد ازدوج فيه تحريم العمل على الإسرائيلى مع تعدد الأيام الأخرى » اهـ بنصه .

* * *

هذا هو منتهى دفاع الدكتور شمعون ، مترجم التلمود وشارحه بمباركة الجم الغفير من رجالات اليهود .

ولئن كان المثل المعروف « يكاد المريب يقول خذونى » فلقد قال هؤلاء فعلا خذونا فلسنا مجرد مريبين ، ولكنا أئمة القتلة والسفاكين .

إن النص فى حل قتل الأمى أو الأممى وهو من عداهم — وهو تعبير شائع عنهم — واضح فى التحريض الشديد ، وإن حاولوا التستر فى الحض على العلم ، وليس فيه أى تخصيص لحصر التنفيذ فى يوم ازدوج فيه تحريم العمل على اليهود ، بل فيه تقديم قتل هذا الأمى بل الأممى من كل من ليس يهودياً على أى عمل دنيوى متى أمكن قتله ، ولا ينافيه صوم ولا سبت ، وخارق السبت بعمل الدنيا عندهم مهدر الدم ، ولكن ذلك العمل أشبه بالعبادة والتدين إن لم يكن عبادة وتدينا .

وهكذا تتراكم شناعات اليهود ، سواء فى الكتاب المقدس أو فى التلمود ، فهل بعد هذا يتساءلون أو يتساءل غيرهم عن سر ما ينالهم من أذى واضطهاد ؟ وهل من عجب أن نرى سيفهم فى رقابهم ؟ وما ظلمهم الله ، وما ظلمهم عباد الله ، ولكن كانوا هم الظالمين .

الفصل الخامس

كتاب اليهود المقدس والأخلاق

التوراة — أسفار موسى والعهد القديم — مسألة الألوهية — شوائب — النبوة فى وضعها الصحيح — النبوة فى الكتاب المقدس : أمثلة : لوط وبنتاه — داود والمرأة — ابن داود وأخته — ابن داود وسرارى أبيه — سلف — خلف — سفر استير — الجامعة — نشيد الإنشاد — إفساد مقصود — نقلة مع العهد الجديد — مع نور الإسلام .

ونأتى بعد ذلك إلى خاتمة المطاف ، فنذكر طرفاً مما اشتمل عليه الكتاب من معان تصادم الأخلاق والآداب .

التوراة :

إن التوراة كتاب الله أنزله على موسى نوراً وهدى للناس ، وإن الشريعة التى نزلت على نبى الله موسى ديانة سماوية كبرى ، جاءت بالحق فى العقيدة ، والعدالة فى الأحكام ، والمكارم فى الأخلاق والآداب ، شأنها شأن هدايات السماء ، لا تختلف أصولها فى دين عن دين ، وإن اختلفت بعض الفروع ، أو تغيرت جزئيات الأحكام بتغير الظروف والبيئات .

وفى القرآن الكريم « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَٰرُونَ الفُرْقَانَ ، وَضِيَاءً وَذِكْرًا للمُتَّقِينَ » .

كتابهم أو العهد العتيق :

والعهد العتيق من الكتاب المقدس هو ما كان قبل المسيحية وأناجيلها ، وما يلى الأناجيل من رسائل الرسل ، ويسمى الأخير بالعهد الجديد (الأناجيل وما بعدها) وفى العهد العتيق بمجلديه الكثير من أمر اليهود ، ويضم أسفارهم المقدسة ، بما فيها ما نسب إلى موسى عليه السلام .

وأسفار موسى فى عرف الباحثين هى الخمسة الأولى من العهد القديم : التكوين ، والخروج ، والأحبار ، والعدد ، وتثنية الاشتراع،

ومعلوم لدى المحققين أنها ليست من كتابة موسى ولا من إملائه عليه السلام ، وأن أصلها فقد فيما حل باليهود من نكبات وتشريد ، ثم دُوِّنت بمعرفة بعض أحبارهم بعد العودة من سبى بابل المشهور ، كذلك كتبت الأسفار التاريخية التى تليها وغيرها فجمعت إلى الصواب الخطأ الظاهر والتحريف المقصود ، وكانت على نحو ما قال الحق جل جلاله عن فريق منهم : « يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذكّروا به » .

جاء فى دائرة معارف لاروس الفرنسية الشهيرة تحت كلمة توراة ما يلى :

« العلم العصرى ولا سيما النقد الألمانى قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة فى الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات ، أن التوراة لم يكتبها موسى ، وأنها عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها ، ألفوها على التعاقب معتمدين فى تأليفها على روايات سماعية » . (نقل هذا وجدى فى دائرة معارفه ج ٢ ، ص ٧٠٢) .

وتقول فى موضع آخر : اتفق قدماء المسيحيين وقدماء الوثنيين على مدح مؤسس الديانة الموسوية ، ولو أنهم لم يعلموا عن أعماله شيئاً كثيراً ، فإنه من الثابت أنه وإن كان قد أسس مدنية وديناً فإننا لا نملك الكتاب الحقيقى لشريعته ، ولقد نسبت إليه التوراة أو الخمسة الكتب الأولى من الكتاب المقدس ، ولكن هذه التوراة حاملة لآثار لا نزاع فيها من الحواشى والتنقيحات ومن علامات أخرى تدل على أنها ألفت بعد الزمان الذى مات فيه موسى بعهد طويل ، فقد ذكرت فيه مدن لم توجد إلا بعد موسى ... ، ويلاحظ تالى التوراة أن مؤلفها الذى لم يذكر اسمه يُنَوّه عن موسى كما ينوّه عن رجل مات منذ قرون كثيرة — وأفاضت دائرة المعارف الفرنسية فى كثير من ضروب النقد التى توجه إلى التوراة ، واعتراضات بعض كبار المفكرين ، وما يتصل بلغة موسى وقد تربى فى مصر ، ولغة بنى إسرائيل وظروف التيه ، ثم قالت : « والواقع أنه عُرِف الآن بما يكاد يصل إلى حد الإجماع فى العالم العلمى بأن التوراة قد حررها « اسدارس » بعد رجوعه من أسر بابل ، بمساعدة مستندات قد ضاعت الآن ، وأساطير عربية كان لها تأثير مستمر فى طابع الشرق » .

* * *

فإذا كان هذا بالنسبة إلى أسفار موسى عليه السلام وهى أصل الكتاب المقدس فى العهد العتيق ، فكيف بما بعد أسفار موسى من الأسفار التاريخية ، ومن أسفار النبوءات والرؤى المنامية وسواها ، مما ضمه العهد العتيق فى مجلديه ، مما سيجىء عن بعضه حديث قريب .

* * *

ولقد أنزل الحق سبحانه شرائعه نوراً وهدى لأولى الألباب ، فإذا وجد فى كتاب دينى زيغ فى عقيدة ، أو جور عن عدالة ، أو انحراف عن خلق كريم ، وأدب قويم ، فلن يكون مصدره العليم الحكيم ، ولا هو من تعاليم نبى معصوم ، اصطفاه الله برسالاته وبكلامه ، فحمل ما آتاه ربه وكان من الشاكرين . وأنى يكون الضلال هدى ، والباطل تنزيلا ، والزيف نوراً ؟ ؛ إنما هى الأهواء حادت عن القصد ، وجعلت من التنزيل قراطيس تبدى ما تشاء ، وتخفى ما تريد ، وتلبس الحق بالباطل ، وتفترى الكذب على الله ، « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

* * *

وإذ قد عرضنا للكتاب المقدس لدى اليهود ، فليس من همّنا أن نقص المثالب والمعايب وما أكثرها فيه ، ولا أن نكشف جنايته على الآداب والأخلاق فحسب ، بل أن نصور إجمالا جوانبه المتقابلة على

وضعها الحقيقى كما هى مما يتصل بموضوعنا ليستبين من ذلك ما اختلط فيه الهدى بالضلال ، وامتزج فيه الحق بالزيف والتحريف ، وشأن الباطل المدّعَى مزجُه بحق ظاهر ، ومنهج قاصد ، يهيء سبيله إلى النفوس ، وطريقه إلى القلوب ، ولو قد عرض عليها عاريا لبادرته بالرفض والإباء .

وقارىء هذا الكتاب الذى يدين بما فيه ملايين البشر سيقرؤه على أنه كتاب هداية ورشاد ، ونبراس خلق ودين ، أو هكذا يجب ، وسوف يمضى فى القراءة من فصل إلى فصل ، ومن سفر إلى سفر ، ثم يجتاز — إن كان ذا جلد فى المطالعة ، وصبر على الدرس — مجلداً إلى مجلد فى العهد العتيق بلغا نحو ألف ونصف ألف من الصفحات ، وسيجد نفسه فى غالب أمره بين ما يصدم شعوره الإنسانى بلْهَ الدينى الرفيع من أعاجيب الفعال حوتها صحائفه ، وما يلمح نور الوحى فيه ظاهراً فيراه من آثار النبوة وهدى الرسالة ، سيرى فى الكتاب ما يخالف المعقول والمنقول ، وما يجافى كل عرف وأدب .

ويرى فيه تاريخاً وقصصاً وأنساباً وفروعاً وجزئيات أخبار .

كما يرى أحكاماً تشريعية فيها حكمة وسداد ، ودعوة إلى العدالة والرحمة ، وحث على الاستقامة ومراقبة الله .

وبودى لو قدمت هذا المعنى الأخير لو أنه أبرزُ معنى فى الكتاب ، أو كان محضاً غير مشوب ولكنه مع الأسف يشوبه الكثير .

وإليك على ما نقول مثلا سريعاً من لفيف الأمثلة التى زخر بها الكتاب ، والتى سنسوق بعضها فى مكانها ، وذلك فى أمر هو أصل الأصول من كل دين سماوى وهى :

مسألة الألوهية :

يقول الكتاب عن سليمان عليه السلام فى مناجاة لله طويلة ، بعد أن بنى الهيكل بامر الله ، ووضع تابوت العهد ، وصنع منبراً وقف عليه :

« (١٣) ثم جثا على ركبتيه أمام جماعة إسرائيل كلها وبسط يديه نحو السماء ، (١٤) وقال : أيها الرب إله إسرائيل ليس إله مثلك فى السماء ولا فى الأرض حافظ العهد والرحمة لعبيدك الذين يسلكون أمامك بكل قلوبهم ... ، (١٨) إن السماوات وسماوات السماوات لا تسعك فكيف هذا البيت الذى ابتليته ، (١٩) التفت إلى صلاة عبدك وتضرعه أيها الرب إلهى واسمع الهتاف والصلاة اللذين يصلى بهما عبدك أمامك ، (٢٠) لتكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت النهار والليل ، على الموضع الذى قلت إنك تجعل اسمك فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك نحو هذا الموضع ... ، (٣٠) أنت وحدك تعرف قلوب بنى البشر ، (٣١) ليتقوك ... ، (٣٣) ليعرف جميع أمم الأرض اسمك ويتقوك مثل شعبك ويعلموا أن اسمك دُعِيَ على هذا البيت الذى ابتليته »(١) .

---

(١) سفر الملوك الثالث ص ٥٦٦ وسفر أخبار الأيام الثانى ص ٧١١ والنص من الأخير .

وهذه الفقرات من مناجاة سليمان وتقديسه جزء من أدعية كثيرة فى مواضع شتى ، ومن قبله داود فى مناجاته ودعواته وبخاصة فى مزاميره ، ومن قبلهما الأنبياء الكرام ، فموسى وهو إمام الهدى فى التوراة يقول فى وصاياه لشعب إسرائيل : « (١٤) إن للرب إلهك السماوات وسماوات السماوات ، والأرض وكل ما فيها . . . (١٦) فاختنوا قلف قلوبكم ، ورقابكم لاتقسوها أيضاً ، (١٧) لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ، ورب الأرباب الإله العظيم الجبار الرهيب الذى لا يحابى الوجوه ولا يقبل رشوة ، (١٨) قاضى حق اليتيم والأرملة ، ومحب الغريب ، يرزقه طعاماً وكسوة » (سفر تثنية الاشتراع ، ص ٣٠٥) .

* * *

فكيف يتفق هذا الجلال الإلهى العظيم مع دعوى مصارعة يعقوب النبى عليه السلام لرجل إلى الصباح ، وأن الرجل الذى لم يقدر على يعقوب لمس حُقّ ورك يعقوب فانخلع من لمسته ، وأن هذا الرجل سمى يعقوب إسرائيل ، وأخفى اسمه عن يعقوب ، فى كلام غامض صرح بعده يعقوب بأنه لقى الله وجهاً إلى وجه — ولننقله بنصه من كتابهم ليكون تحت نظر القارىء الكريم فيشاركنا الرأى فيه .

فى الفصل الثانى والثلاثين من سفر التكوين جاء ذكر عودة يعقوب من رحلته عند خاله بزوجتيه ابنتى خاله وبنيه وعبيده وماشيته ، كما ذُكِرَ فيه خوف يعقوب من أخيه عيسو بكر أبيهما إسحق الذى أخذ

يعقوب حق بكريته برضاه، واحتال بمساعدة أمهما على أخذ بركة أبيه من دونه خداعاً كما سبق ... وأراد يعقوب التودد إلى أخيه فقدم بين يديه عبيده وأولاده ، كما قدم هدايا إلى أخيه تلطفا . ثم جاء بعد ذلك ما نصه (ص ٥٦) : « (٢٤) وبقي يعقوب وحده فصارعه رجل إلى مطلع الفجر (٢٥) ورأى أنه لايقدر عليه فلمس حُقّ وركه فانخلع حُقّ ورك يعقوب فى مصارعته له (٢٦) وقال اطلقنى لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لاأطلقك أوتباركنى (٢٧) فقال له : ما اسمك ؟ قال : يعقوب (٢٨) قال : لايكون اسمك يعقوب فيما بعدُ بل إسرائيل لأنك إذ رؤست عند الله فعلى الناس أيضاً تستظهر (٢٩) وسأله يعقوب وقال : عرفنى اسمك فقال : لم سؤالك عن اسمى وباركه هناك (٣٠) وسمى يعقوب الموضع فنوئيل قائلا : إنى رأيت الله وجهاً إلى وجه ونجت نفسى » (١)

* * *

فهل كان الله تعالى يصارع يعقوب وعجز عنه ، أوكان ذلك تدريباً ليعقوب على لقاء أخيه ؟ ولئن كانت الأخيرة وإنها لأهون الشنيعتين ، فلم يؤت الدرس ثماره فى هذا الصدد ، إذ اشتد بعده

(١) فى المنجد قسم الأدب والعلوم فى مادة إسرائيل يقول : سمى به يعقوب بعد أن قاوم الملاك – وليس فى تعبير الكتاب المقدس ما يشير إلى هذا التخريج – وفى أول الفصل أن ملائكة الله وافت يعقوب ، ومع ذلك فقد خاف جداً من أخيه عيسو ، ونادى قائلا : يا إله أبى إبراهيم وأبى إسحق ... أنقذنى من يد أخى عيسو . راجع الفصل المشار إليه (ف ٣٢ من سفر التكوين) .

خوف يعقوب من أخيه عيسو ، كما جاء فى أول الفصل الذى يليه ، حتى لم يكفه أن سجد لأخيه عيسو مرة أومرتين ، بل أتم سبع مرات ، بعدها تعانق الأخوان وتباكيا ، ثم تقدمت أمتاه وأولاده منهما وسجدوا لأخيه ، كما تقدمت زوجتاه وأولاده منهما وسجدو كذلك (ص ٥٧) .

هذا هو موقف الكتاب من الألوهية ، ترى معانى وتعبيرات عليها طابع النبوة ، وآثار الوحى — تقابلها ظلمة حالكة لايقرها عقل ، ولايطابقها صحيح نقل ، تستطيع بعد هذا أن تضم كل طائفة إلى معناها وتقرنها بأشباهها .

قالرب سبحانه(١) : « هو الأول والآخر ، إله جميع الممالك وحده لا إله غيره ولاشبيه له » ، إله عظيم ، وملك عظيم على جميع الآلهة ، وجميع آلهة الشعوب أصنام ، رءوف رحيم ، طويل الأناة ، كثير الرحمة ، عزيز جبار خالق العباد ، وصانع قلوبهم جميعاً ، وعالم بأعمالهم كلها ، العدل والقضاء قاعدة عرشه » .

يقابل هذا أمثال تلك النصوص :

« فسمعا (آدم وحواء) صوت الرب وهو متمش فى الجنة (ص ٧ من سفر التكوين) — رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات ... دخل بنو الله على بنات الناس ، وولدن لهم أولاداً ، أولئك هم

---

(١) هذه الأوصاف بلفظ الكتاب المقدس ، ولم نذكر الصفحات تخففاً ولشيوعها فيه ... أما الأوصاف الأخرى المقابلة فقد نسبناها إلى أماكنها ، لا لحصرها ، ولكن ليزداد القارىء اطمئناناً ، وليرجع إليها فى مكانها من شاء .

الجبابرة ... فندم الرب أنه عمل الإنسان على الأرض وتأسف فى قلبه (ص ١١ – ١٢) . فندم الرب واغتاظ لما أغضبه بنوه وبناته (ص ٣٤١ تثنية الاشتراع) . ندم الرب على أنه ملك شاول على إسرائيل (ص ٤٧١ الملوك الأول) . قم الآن أيها الرب الإله إلى راحتك (٧٠٣ من دعاء سليمان ف٦ سفر أخبار الأيام الثانى) : قم أيها الرب إلى راحتك أنت وتابوت عزك (١٤٧ مزامير داود) : رأيت الرب جالساً على عرشه وجميع جند السماء وقوف لديه على يمينه وشماله (٥٩٩ سفر الملوك الثانى) : الرب كجبار يبرز وكرجل قتال يثير غيرته ويهتف ويصرخ ويظفر على أعدائه (٢٧٧ نبوءة أشعيا) : سطع دخان من أنفه ومن فيه نار آكلة ، جمر متقد ، طأطأ السماوات ونزل والضباب تحت قدميه ، ركب على كروب وطار وخطف على أجنحة الرياح (ص ٥٧ – ٥٨ مزامير) .

من هذا ، وغيره كثير ، يستبين ماقلناه عن تصوير الكتاب المقدس للألوهية ، ولئن أمكن الاعتذار عن بعض ماورد فى القسم الأخير من غلبة المجاز ، وعجز اللغة ، وضعف الترجمة ، فالأمر فى مجموعه كما تبين حق يشوبه باطل ، وتقديس يخالطه تمثيل وتشبيه — أما النبوة وحديث الكتاب عن الأنبياء فالأمر جد مختلف ، وهاك عنها كلمة :

النبوة فى وضعها الصحيح :

بعث الله النبيين هداة راشدين ، واختارهم مبشرين ومنذرين ، واصطفاهم من خلقه و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » وأقامهم مثل

هداية وأعلام رشاد ، يهدون بأمر الله إلى الخير وإلى صراط مستقيم ، وأوجب لهم العصمة الكاملة ، لتصح بهم القدوة ، وتقوم بهم الحجة فلايكون من أحدهم عمل ينال من كرامته ، أويقدح فى عدالته ، أويحط من منزلته العلية بين ذوى المروءات والعقول الراجحة ، نعم تنالهم الشدائد والأعراض البشرية ، ويصيبهم الأذى من الأعداء ، وهم فى جهادهم وعظيم بلائهم وعلوهممهم تزداد القدوة بهم رسوخاً ، وتعظم الأسوة للمؤمنين فيهم وضوحاً .

وعقيدة المسلم فى جميع رسل الله تعالى عقيدته فى نبيه الكريم الذى وصفه الحق تعالى بقوله : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ولقد فضل الله بعضهم بميزات ، ورفع بعضهم درجات ، نور أعلى نور ، وإن كانوا جميعا فى أصل الهدى على سواء « لانفرّق بين أحد من رسله » .

أما المساس بعصمة واحد منهم فليس افتراء على الحق والواقع فحسب ، ولا اجتراء على مثل الإنسانية العليا فى أكمل صورها ، بل هو طعن فى الحكمة الإلهية التى اختارتهم على علم ، وجل الله عما يقول المبطلون ، ويفترى الظالمون .

فى الكتاب المقدس :

نطالع أمر النبوة فى الكتاب المقدس فلا نرى لها ذاك الضياء ، ولا هذا البهاء ، بل نراها ذابلة شاحبة تلوح من بعد على استحياء ، فإبراهيم المجاهد بنفسه وولده وماله لله ، والذى حطم الأصنام ،

وتحدى الجبابرة الطغام ، وألقى من أجل دعوته فى النار فأنجاه الله ، فى كفاح طويل ، وجهاد موصول كان به للناس إماماً ، وعلى مدارجه ومن نسله درج الأنبياء ، ابراهيم فى التوراة جُل أمره غنم وماشية يرعاها وترعاها عبيده، أما نبوته ، وأما رسالته ، فيشار إليها فى كلمة عابرة ، وكل ما فى الأمر لايعدو بناء عدة مذابح فى أماكن متفرقة تقدم عليها القرابين . ولعل قصة امتحان(١) إبراهيم فى ولده وما كان من فدائه لم يشر إليها إلا رغبة فى الإشادة بإسحق الذى ينتسبون إليه ، واغتصاب شرف عرف لإسماعيل جد العرب .

كذلك شأن إسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان من كبار الأنبياء ، وهم فى النبوة غير ظاهرين .

وأظهر نبي فى التوراة موسى ومعه أخوه هرون عليهما السلام ، وقد لقيا فى تبليغ الرسالة ثم فى قيادة بنى اسرائيل من العنت الشيء الكثير — وسبقت الإشارة إلى بعضه — ولم يدخلا الأرض المقدسة التى خرجا من مصر ببنى اسرائيل يقصدونها بشؤم التخاذل والمعاصى من بنى اسرائيل .

* * *

---

(١) فى القصة كما روتها التوراة ما يكذب الزعم بأن الذبيح إسحق ، فإسحق جاء بعد إسماعيل ببضعة عشر عاماً (ص ٢٧) وفيها وصف الذبيح بأنه وحيد إبراهيم ، وليس ذاك إلا إسماعيل قبل ولادة إسحق ، وتكرر الوصف للابن بالوحيد بضع مرات فى القصة (ص ٣٤) .

ومثل هذا إغفال بناء إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام بمكة ، ودعوى التوراة اقامة إسماعيل ببرية سيناء ، ومصاهرته المصريين حسب اختيار أمه .

ولواقتصر الأمر على هذا لكان قصوراً وربما كان هيناً ، ولكنه تجاوزه تجاوزاً طاغياً على عصمة الأنبياء وكرامتهم وسلامة دينهم .

فالفسق والفجور ملسوبان فى كتابهم إلى فريق من كبار الأنبياء .

والزيغ والكفر ملسوبان كذلك إلى فريق من كبارهم .

والغش والخداع ألصقهما الأسفار بساحة فريق آخر من عظمائهم .

ونحن مضطرون آسفين إلى كشف شناعات اليهود ، وتهجمهم على مقام الهداة المرشدين ، ومحاولتهم النيل من مثل الإنسانية العليا التى أقامها الله رحمة بالإنسان فى سيرته عبر التاريخ منذ الخليقة إلى يوم يبعثون .

وعلى سبيل المثال :

لوط عليه السلام وبنتاه :

لوط النبي المعصوم وبنتاه المؤمنتان معه بعد هلاك قومه وهجرته من أرض الفساد التى أمطر الرب عليها كبريتاً وناراً فدمرها تدميراً، يقول كتابهم (فى ص ٣١) من سفر التكوين بشأنهم ما يلى :

« (٣٠) وصعد لوط من صوعر وأقام فى الجبل هو وابنتاه معه إذ خاف أن يقيم فى صوعر فأقام فى المغارة هو وابنتاه (٣١) فقالت الكبرى للصغرى : إن أبانا قد شاخ وليس فى الأرض رجل يدخل علينا على عادة أهل الأرض كلها (٣٢) تعالى نسقى أبانا خمراً ، ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلا (٣٣) فسقتا أباهما خمراً تلك الليلة ، وجاءت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنيامها ولاقيامها (٣٤) فلما

كان الغد قالت الكبرى للصغرى هأنذا ضاجعت أمس أبى فلنسقه خمراً الليلة أيضاً وتعالى أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلا (٣٥) فسقتا أباهما خمراً تلك الليلة أيضاً ، وقامت الصغرى فضاجعته ولم يعلم (٣٦) فحملت ابنتا لوط من أبيهما (٣٧) وولدت الكبرى ابناً وسمته موآب ، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم (٣٨) والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمته بَنْعَمّى ، وهو أبو بنى عمون إلى اليوم » .

هذا ما يقوله كتابهم ، وعنصر التلفيق والكذب ظاهر لايغشيه قولهم : ولم يعلم بنيامهما ولاقيامهما — وإذا ذكرنا أن هؤلاء الموآبيين وبنى عمون أعداء الإسرائيليين ، لأنهم لم يتلقوا آباءهم عند مجيئهم من مصر بالخبز والماء ، كما مرت الإشارة إليه فى الفصل السابق تحت عنوان — خبز وماء — افتضح سر الفرية على هؤلاء القوم ، وعلى نبي الله الكريم ، وابنتيه المؤمنتين الطاهرتين .

داود والمرأة :

وهذا داود النبي الأواب ، الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، يزعم كتابهم — وقد شهد له مراراً بالاستقامة وطهارة القلب (ص ٤٥١) وشهد له الرب سبحانه فى خطابه لسليمان (ص ٨٥٠) وشهد هو لنفسه بفضل الله عليه فى الإخلاص والاستقامة — يزعم برغم هذا كله فى كلام طويل أن امرأة لجار له أعجبته «فأرسل رسلا وأخذها فدخلت عليه ، فدخل بها . . . وحملت » فاحتال على قتل زوجها فى الحرب ، مع شدة إخلاص الرجل لداود ، وأدبه الجم الذى

أبرزته القصة ينضح نبلا وتفانياً ونجدة ، ووصمت داود النبي بكل نقيصة ::: فلما قتل الزوج بكته زوجته حيناً ، ثم ضمها داود لنفسه زوجة جاء منها النبي العظيم والملك العظيم سليمان ، عليهما السلام .

ومن العجب أن يكون هذا الرجل النبيل الذى خدم داود بإخلاص وأبى فى عودة له من ميدان القتال أن ينزل إلى بيته وامرأته ، برغم أمر داود له بالنزول إلى بيته ليغسل رجليه على حد تعبير كتابهم — معتذراً بأن التابوت وإسرائيل ويهوذا مقيمون فى الخيام على وجه الصحراء ، ويصر على أن ينام على باب بيت الملك داود مع النائمين حتى يعود إلى ميدان القتال ::: هذا الرجل هو « أوريا الحثى » من بنى حث أصحاب الفضل الأول فى تمليك إبراهيم عليه السلام قطعة أرض يدفن فيها زوجه سارة ، وقد رحبوا بأن يدفن ميته فى أى مكان شاء من مدافنهم ، فلما رغب مكاناً خاصاً عرضوه عليه هبة ، ولم يقبلوا منه ثمناً إلا نزولا على رغبته الأكيدة .

وكأن كاتب الكتاب عدوٌ لبنى إسرائيل واليهود ، وما عدوهم الحقيقى إلا شرور أنفسهم وخبث طواياهم ، وسيئات أعمالهم(١) (ف ١١ ص ٥١٧ سفر الملوك الثانى) .

---

(١) ظهرت فى الصحف الإسرائيلية من سنوات قليلة فضيحة نقلتها صحيفة الأهرام فى حينها مفصلة ، مؤداها إفساد وزير إسرائيلى زوجة ضابط ، وهدم بيتها بطلاقها من زوجها ، وشكواها فى مذكرة إلى رئيس وزرائه الذى دافع عنه أمام الرأى العام ، متخذاً من أسطورة أوريا الحثى مثلا فى الاحتفاظ بعظماء الرجال فى خدمة أمتهم ، وإن ارتكبوا نقائص خلقية ، وهدموا بيوتاً وأسراً .

وهكذا تعود القدوة الطاهرة المعصومة فى نفوس الأشرار مثلا شريراً وقدوة سيئة .

من ثمار الفرية :

وتأتى ثمار هذه الجريمة المفتراة على نبى الله داود شوكاً وحنظلا فيما زعم اليهود ، فيروى الكتاب المقدس تمام القصة فى فصلين (١١ ، ١٢ من سفر الملوك الثانى) ويذكر نقل الخطيئة عن داود إلى غيره بحيث لايموت هو ، وإنما يموت الطفل الذى تخلّق من زنا ، كما يذكر إنذار داود بأن الرب سيثير عليه الشر من بيته ، وسيأخذ أزواجه ويدفعهن إلى غيره فيدخل عليهن فى عين الشمس ، وعلى عيون جميع اسرائيل (ص ٥٢٠) .

أمنون بن داود وأخته :

وقبل أن يتحقق ما أنذر الرب به خاصاً بزوجات داود ، تجىء شنيعة بين ابن لداود وأخته من أبيه ويبسط الفصل (١٣ من السفر نفسه) كيف تدله ابن داود فى حب أخته من أبيه حتى سقم ، فنصحه قريب لهما نصيحة شيطانية استطاع بها أن ينال بغيته منها ، وضاجعها اغتصاباً ، ويسمع داود بالأمر ويغضب ، ولكنه لايعاقب ابنه الجانى ولو بكلمة : « لأنه كان يحبه إذ كان بكره » غيرأن شقيق الفتاة يسر أمراً فى نفسه ثم ينتقم لأخته بقتل أخيه ، ويغضب داود ثم يرضى .

ويقرأ القارىء القصة ويمتلىء القلب أسفاً وغيظاً ، أوزراية وعجباً حين يقرأ فى ثناياها مثل هذه النصوص : (٢) وتدله أمنون حتى سقم فى تامارا أخته ، لأنها كانت عذراء فكان يعسر عليه أن

يصنع بها شيئاً (٣) وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعة أخي داود ، وكان يوناداب رجلا ذكياً جداً ... (٥) فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض فإذا أتاك أبوك ليعودك فقل له لتجيء تامارُ أختي ، وتطعمني خبزاً وتعمل الطعام أمامي ، وآكل من يدها ، إلى أن يقول (١٩) فجعلت تامار رماداً على رأسها ، ومزقت القميص الموشَّي الذي كان عليها ، ورفعت يدها على رأسها وذهبت وهي تصرخ ... (٢١) وسمع داود الملك بجميع هذه الأمور فاغتاظ جداً ولكنه لم يحزن نفس أمنون ابنه لأنه كان يحبه إذ كان بكره ... الخ.

فهذا السوء الذي يقصه كتابهم ، ويثير من اشمئزاز النفوس ، الكريمة مالاتبلغ العبارة وصفه ، لايكفي الكتاب مجرد سرده ، حتى يضيف إليه من سوء نفسية كاتبه ما يغري أمثاله بأمثاله .... فالفتاة لوكانت ثيبا لم يعسر عليه في رأى الكتاب ما يريد ، وابن العم لا يهمه شرف أسرته بل هو يغري بانتهاكه ، وعلى يد أحق الناس برعايته ، والكتاب يبارك هذا كله ، ويصف يوناداب بأنه ذكي جداً .. فصلا كاملا في ٣٩ فقرة في قرابة ثلاث صفحات من قداسة الكتاب .

أبشالوم وفراش أبيه :

وأبشالوم هذا هو شقيق تامار الذي انتقم لشرفها من أخيه أمنون ، وفر من وجه أبيه داود حتى استرضاه ، ورضي عنه ، فدخل عليه وسجد بين يديه ، ولم يلبث إلا قليلا تمكّن لنفسه ويتحبب إلى الشعب ثم خرج على أبيه ، وطلب الملك لنفسه ، وقاتل أباه وطارده ، وهذا الابن الذي غضب سابقاً للشرف وانتقم له من أخيه ، لم يبال

بشرف أبيه ، فتعمد انتهاك فراشه على مشهد من عامة الشعب إزراء بقدره فى نفوس إسرائيل كى يشتد ساعدهم معه فى مقاومة أبيه .

جاء فى الفصل السادس عشر من جملة الفصول التى سردت القصة مايلى : (٢٠) وقال أبشالوم لأحيتوفل : أشيروا ماذا نصنع (٢١) فقال أحيتوفل لأبشالوم : ادخل على سرارى أبيك اللاتى تركن لحفظ البيت ، فيسمع إسرائيل جميعهم أنك صرت مكروهاً من أبيك فتشتد أيدى جميع الذين معك (٢٢) فضربت لأبشالوم خيمة على السطح ، ودخل أبشالوم على سرارى أبيه على مشهد جميع إسرائيل (٢٣) وكانت المشورة التى يشير بها أحيتوفل فى تلك الأيام كمشورة من يسأل الله .

* * *

وتنتهى فتنة أبشالوم بقتله عقب معركة انهزم رجاله فيها ، برغم وصاة الملك لمن معه أن يترفقوا « له بالفتى أبشالوم » فلما بلغ الملك مصرعه أذهلته الصدمة ، وظل يبكى بكاء شديداً ، ويقول وهو يتمشى فى لوعة وذهول : يابنى أبشالوم يابنى أبشالوم ، ياليتنى مت عوضاً منك يا أبشالوم ابنى يا بنى » (ص ٥٣٤) .

وكأن الملك لايهمه من الأمر كله إلا ولده الذى خرج عليه ، وكشف سوءة سراريه ، غير مبال بانتهاء الفتنة ، واستمر فى بكائه بصوت مرتفع ، وفى هذا يقول كتابهم : (٣) فصارت النصرة فى ذلك اليوم مناحة ... (٤) وأما الملك فستر وجهه ونادى بصوت عظيم : يابنى

أبشالوم يا أبشالوم ابنى ، يا أبشالوم ابنى يابنى (٥) فدخل يوآب على الملك فى البيت وقال له : قد أخزيت اليوم وجوه جميع عبيدك الذين نجوا نفسك اليوم ، وأنفُس بنيك وبناتك وأنفس أزواجك وأنفس سراريك (٦) بحبك لمبغضيك ، وإبغاضك لمحبيك .. (٧) فقم الآن واخرج وطيب قلوب عبيدك ... (٨) فقام الملك وجلس بالباب ، فأقبل الشعب كلهم .. » (ص ٥٣٥) .

سلف :

وقد نسب الكتاب لأحد أبناء يعقوب عليه السلام ، وهو بكره رأوبين مضاجعته لسرية أبيه ، وأن أباه سمع بذلك ولم يذكر أنه صنع شيئاً (ص ٦٠ من سفر التكوين ف ٣٥) .

* * *

كما نسب ليهوذا (ولد يعقوب) أنه ضاجع كنّته (زوجة ولد له مات) يحسبها بغياً وأنها علقت منه ، فلما ظهر حملها أراد إقامة الحد عليها بإخراجها لتحرق ، فأقامت حجة عليه — فصلّها كتابهم — بأن الحمل منه ، فاعترف بأنها أبرّ منه ولم يعرض لها بسوء (ص ٦٦ من سفر التكوين ف ٤٨) .

خلف : « سفر استير »

كما أقام الكتاب نصباً تذكارياً موحياً لليهود بأخلاقهم وطرائقهم من القديم إلى اليوم ، كاشفاً لغيرهم عن سوءاتهم وأحابيلهم حينما سجل فى جملة أسفاره سفرا خاصاً يشيد بامرأة يهودية جميلة ، استعمل

جمالها رجل يهودى فى خدمة بنى جنسه أثناء سبى بابل المشهور ، فقدمها إلى حارس النساء فى بيت الملك الفارسى الذى قدمها بدوره إلى الملك لتختبر كغيرها من العذارى اللائى يوضعن تحت الاختبار من المساء إلى الصباح ، فأحبها الملك ونالت حظوته ، وجعلها ملكة مكان الملكة السابقة التى فارقها ، فلما استهوت الملك احتالت حتى قضت على عدو اليهود فى فارس ، ثم استدرت عطف الملك على بنى جنسها ، فرد إليهم حريتهم ، وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين ، وأمر بمعاونتهم ، تلك اليهودية هى المدعوة باستير ، وسفراستير هو خاتمة أسفار المجلد الأول من الكتاب المقدس : العهد العتيق . (من ص ٨١٢ — ٨٢٦) .

سفر الجامعة :

ثم لاتقف مخازى الكتاب الجنسية عند حد سرد الأقاصيص واقعة أومفتراة ، ولكنه يمضى فى استكمال الإطار العام لصورة شوهاء عجيبة لكتاب دينى عجيب .

فما ينتهى القارىء من سفر أيوب وفيه صبره وإيمانه ، ومن سفر المزامير وفيه توسلات داود ومناجاته ، وسفر الأمثال وفيه خبرة سليمان وحكمته ، حتى يلتقى بسفر الجامعة بما حوى من اضطراب وحيرة وإلحاد ، إذ يتردد بين الحكمة والحماقة ، والعلم والجهل ، والإقرار والإنكار ، والإيمان والكفر ، ثم تنتهى الدعوة فيه إلى التمتع بالحياة والخمر والنساء ، فالكلب الحى خير من الأسد الميت ، وليس للأموات من جزاء (ص ٢١٠) .

ويطرد فى هذه المعانى الموحية بالقلق والاضطراب إلى أن يختم هذا الخلط والضلال بالأمر بتقوى الله وحفظ وصاياه ، لأن الله سيحضر كل عمل ليدين على كل خفى خيراً كان أو شراً (ف ١٢ ص ٢١٣) .

وإن أردت أن تعرف مَن الجامعة فقد عرّف بنفسه فى الفصل الأول إذ يقول فيه : كلام الجامعة ابن داود ملك أورشليم ::: (١٢) أنا الجامعة ملكت على إسرائيل بأورشليم ... (من ص ٢٠٠ — ٢١٣)[1] .

نشيد الإنشاد :

وإذا كان الجامعة قد ختم لغوه وخلطه بعبارة يأمر فيها بتقوى الله ، فإن سفراً آخر يليه يسمى نشيد الإنشاد ليس فيه شيء من الخلط ، وإنما هو صفو صراح ، ولكن فى معانى الغزل المكشوف ، كأسمج ما يكون الغزل ، وأوضح ما يكون الفحش ، دونه على فصوله الثمانية القصار ما عرفناه لشعراء الغزل من جاهليين وغيرهم .

ثم لمن هذا السفر من الكتاب المقدس ؟ إنه لسليمان فيما زعم كاتبه ، وأين موضع هذا الإسفاف من سليمان الحكيم ؟ ولكن لا عجب فإذا ساغ للكتاب نسبة الزيغ إلى نبى معصوم ، فهل يستغرب وصفه بما دون ذلك من لغو المقال (٢) .

---

(١) ويعرف به صاحب المنجد فيقول : الجامعة (سفر) كتاب من أسفار العهد العتيق أوله الآية الشهيرة : « باطل الأباطيل ، وكل شئ باطل (القرن ٣ ق م) ويكتفى — وأقول : وهذا يكفى فى الترجمة عن منهجه .

(٢) ويعرف بنشيد الإنشاد صاحب المنجد فيقول : عنوان سفر من أسفار العهد القديم ينسب إلى سليمان بن داود ، وفيه التغزل بالحب الإلهى مستعاراً من التغزل بالحب البشرى — وأقول : ليس فيه من حب الله ولا يرد ذكره تعالى لفظ ولا معنى .

افساد مقصود :

فلعل في بعض ماعرضناه غنية عما سواه ، لنشير إلى جناية الخلط في الكتاب على الأخلاق والآداب ، ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن ما خالف المعقول والمنقول ليس من دين الله ولا هدى الأنبياء قط ، وإن تناولته أقلام ، ولاكته لسنة ، وألشده ملشدون .

ولكن الذى لاريب فيه أن اليهود إذا عمدوا من هذه التعاليم — كما عرف عنهم — إلى إشاعة الفوضى الخلقية والانحلال في المجتمعات ، فلن يكون ذلك عن سوء قصد فحسب ، ولكنه كذلك رضا لفطر منكوسة ، ونفوس مئوفة ، وحاشا لله وأنبيائه الكرام أن يكون هذا السوء من التنزيل بسبيل .

نقله مع العهد الجديد :

ننتقل بعد ذلك نقلة لعلها تغسل بعض أوضار هذه القبائح المسطورة في هذا الكتاب العجيب ، فنرى في العهد الجديد من الكتاب المقدس ، من تعاليم الأناجيل ، وما نسب إلى السيد المسيح في دعوته إلى العفة والطهارة ، وقطع وساوس النفس ، ونوازع الهوى مثل هذا النص الذى يتكرر ويتأكد « قد سمعتم أنه قيل للأولين لاتزن ، أما أنا فأقول لكم : إن كل من نظر إلى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها في قلبه ، فان شككتك عينك اليمنى فاقلعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يلقى جسدك كله في جهنم (متى ف ٥ ص ٨) .

مع نور الإسلام :

فإذا اتجهنا إلى رياض الإسلام ، وتلسمنا أريجه العبق الندى بالكرامة الكاملة ، والحرية الفاضلة ، ورأيناه وقد سلك بأتباعه السبيل العملى إلى الطهر والعفاف ، فحث على الستر والاحتشام ، وأمر بغض الأبصار وحفظ الجوارح ، وفرض صيانة الأعراض والأنساب ، وحمى شرف المرأة وسمعتها من أفواه الماجنين ، وعدّ قذف المحصنات من الموبقات ، وقرنه بالشرك وقتل النفس بغير حق ، والتولى يوم الزحف ، وسجل القرآن اللعنة فى الدنيا والآخرة على قاذفى العفيفات ، وأمر بجلدهم ، ورد شهادتهم ، وإسقاط كرامتهم ... كل ذلك ليوفر جواً طاهراً نقياً يتنفسه المجتمع الإسلامى السليم ومن ينهج نهجه من غير المسلمين .

وفى القرآن الكريم : « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن : » « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم .. » « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولايبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن .. » « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » .

« ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » .

* * *

فإذا كانت الصهيونية بكل شرورها ودلسها وأطماعها تجيء اليوم لتأتى على القواعد من قداسة هذه الأرض الطاهرة ، وتلويث شرف العرب من مسلمين ومسيحيين ، وإشاعة الرذيلة بين ربوع هذه البلاد ، وبث بائعات الهوى الليلى وماجنات صهيون ، فليس ذلك بالجديد من أمرهم ، ولا بالغريب من ميراثهم ، وتاريخهم المدون بأقلامهم وأسفارهم المسفرة عن شرهم ..

* * *

ولكن الأمل فى نصر الله تعالى يواكب النفوس الأبية من وارثى هداية السماء فى أرض النبوات والأنبياء ممن يقدسون طهارة المسيح المجيد ، ويعتزون بعزة الإسلام .

ولئن احتجت نساء القدس العفيفات من مسلمات ومسيحيات ، وبعثت إلى سلطات إسرائيل باحتجاجها متحدية الحديد والنار ، وبعثت إلى العالم كله ممثلا فى الأمم المتحدة تنكر على إسرائيل الفحش والعار ، فإن طلائع الزحف المقدس من شباب العرب والمسلمين ، وأبطال فلسطين الغر الميامين ، يسطرون اليوم أروع الصفحات فى عالم التضحية والفداء ، ويغسلون بالدماء الزكية الثرى الطاهر من أقذار صهيون .

خاتمة

وبعد :

فإذا كان الكتاب المقدس فى عهده القديم وثيقة تاريخية يهودية جمعت النقائض والأشتات ، وضمت من حيث شاء اليهود فخراً وتيهاً — من وقائع التاريخ اليهودى ما لا يشرف شعباً فى سلم ولا حرب ، ولا ترتفع به جباه قوم فى نصر أو هزيمة ، فهل يحمل اليهود المعاصرون أوزار ما ورد فى الكتاب المقدس عن السابقين ؟ وهل يكون ماضيهم الذى أسلمهم المرة بعد المرة إلى الهلاك والتدمير حاكماً عليهم ، قائماً على رءوسهم ، مسلطاً على أقدارهم ؟

* * *

إن كثيراً من الباحثين يرون اليهود اليوم هم اليهود منذ كانوا ، لم يغير العصر الحديث من خلائقهم ، ولم تؤثر البيئات المختلفة من طباعهم إلا ما زادتهم المدنية الحديثة نفاذاً إلى ما يبغون من شر وإفساد وتضليل — يعيشون أشتاتاً فى بقاع الأرض متفاهمين فى طرائق العمل ، وإذا كان تفرقهم مظهراً من مظاهر الضعف فإنهم يعدونه فى الوقت نفسه من أكبر أسباب القوة ، حيث يحاولون عن طريق المال — وقد برعوا فى جمعه — التغلغل فى شئون الحكم ، والتأثير فى حياة الأمم الاجتماعية من وراء ستار ، وتوجيه السياسة العالمية ، والتصدى لمن

لاوأهم أو اعترضهم فى هدف أو منفعة ، وهم مع كل ذلك يحيون فى عزلة نفسية ، وانفصام تام عن مشاعر الشعوب التى يعيشون فيها .

عدالة الإسلام :

إن عدالة الإسلام المطلقة فى كمالها وشمولها ، تأبى أن تحمل نفس وزر أخرى ، أو تفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، برغم ما يصرح به كثيراً كتاب اليهود المقدس ، ولو شاء اليهود أن يحيوا حياة طيبة لما وجدوا أوسع من الإسلام صدراً ، ولا أسمح من المسلمين نفساً ، ولا أكرم من العرب جواراً ، وقد عاشوا طويلا فى ظلال الحكم الإسلامى ، وجنبات البلاد العربية لا يضارون فى دينهم ، ولا يضيق عليهم فى دنياهم .

ولمصر فى القديم والحديث أياد عليهم بيضاء ، عدا ما كان من ظلم فرعون لهم لأمر أراد الله به نشر الديانة الموسوية فى الأرض المقدسة ، وجعل به فرعون عبرة فى الآخرين ، فما من شدة فى عيش أو كارثة فى نفس تحل بهم إلا كانت مصر معقد آمالهم ، ومحط رحالهم .

الصهيونية والاستعمار :

لكن الصهيونية العالمية — قاتلها الله — تنكرت لكل صنيع ، ولبثت كل جميل ، فمن سخرية القدر أن يعمد اليهود الصهيونيون إلى تحميل العرب وحدهم أوزار ما صنعت الإنسانية بهم ، فقفزوا إلى فلسطين قلب العروبة يسفكون فيها الدماء ، ويذبحون الأطفال والنساء ، ويشقون بطون الحوامل ، وينشرون من سيرتهم ما كان مطويا ،

ويعلنون من نواياهم وطرائقهم ما كان خافياً ، مستعينين فى ذلك بما عليه لهم أشياعهم من المستعمرين الغربيين ، مسخرين فى ظنهم الاستعمار الغربى لأغراضهم وما يعقلون أنهم فى الحقيقة يسعون لحتفهم ، وأن الاستعمار يريدهم لتعويق نهضة الشعب العربى وامتصاص قواه ، ليظل فى دائرة نفوذ الغرب لا يعدوها ولو كان فى ذلك انتحار يهود إسرائيل .

إن اليهود الصهيونيين بتخدير أوهام عودة ، وتأسيس دولة فى فلسطين تسيطر على مصاير الشرق الأوسط ألعوبة فى يد الأشرار الغربيين من ساسة انجلترا أولا ثم أمريكا ومشايعيهم ، يضربون بهم شعباً أبياً ليقظ بماضيه المجيد وقواه البشرية والاقتصادية ، وهيهات أن يستخذى أو ينام ، وأنى يكون النوم فى عالم اليوم وقد تشابكت الصلات ، ومحيت المسافات ، وكشفت الأستار عن خفايا السياسات ، ونقلت الإذاعات ثقافة العالمين بكل لغة إلى كل لسان .

ضرورة الجهاد الشعبي :

إن العربى الذى عرف بفرط كرمه ، عرف كذلك بأنفته وإبائه وشدة شكيمته إذا مس عرضه أذى ، أو دنس طهارته مدنس .

وإن الشدائد التى حلت بالعرب فى فلسطين درس عملى نفذ إلى أعماق العروبة فهزها هزاً قوياً ، ونفض الكرى عن عيون الغافلين ، وإنها بإذن الله عائدة إلى مكانها فى الصدارة من قافلة الحياة .

لقد اكتسح المغول بلاد الإسلام ، وهزم المسلمون ثم انتصروا أخيراً بإسلامهم على جحافل المغيرين ، أما الإسلام فلم ينهزم بهزيمة

أهله بل انتصر بعد على قلوب هؤلاء الأعداء فضمهم إلى جنده ، ومنحهم سناً من نوره ، فحملوا لواءه طائعين ، وجاهدوا فى سبيله راضين .

واحتل الصليبيون فلسطين ، وبنوا القلاع والحصون ، ثم أوقع العرب بهم ، وأخرجوهم مدحورين .

فإذا كانت الصهيونية والاستعمار يُدلان بالحديد والنار ، وما بلغت الآلات العلمية من ألوان الدمار ، فإن فى جهاد الشعوب لعبرة لأولى الألباب .

لقد أقام الإنجليز فى مصر سبعين عاماً بعد أن هزموا جيشها بالدسائس والخداع ، والتفريق بين الشعب وحاكمه قبل أن يهزموه بالسلاح ، وما أخرجهم إلا الجهاد الشعبي فى القنال .

ثم فى الجزائر الباسلة وفى اليمن الشعبية وبقية بلاد العرب ، كذلك فى فيتنام وغيرها أمثلة قائمة ونماذج رائعة ، فإذا توانت حكومة عربية أو حكومات ، وإذا خسر جيش معركة أو معارك ، فإن الجهاد الشعبي وسيلة الكفاح ، وأسلوب التحرير فى العصر الحديث .

إن يهود العالم أجمع دون شطر الجمهورية العربية وحدها عدًا ، وإن شعباً صغيراً كفيتنام ، بل جزء ذلك الشعب الصغير قد دوخ بكفاحه أقسى قوى الأرض وأشدها بغياً ، حتى مدت إليه يدها وتوشك أن تركع أمامه ، لتخرج من أرضه ببقية فى قواها ، وفى

هيبتها على الصعيد الدولى ، وإلا فالويل لها إن ظلت تركب رأسها وتعتدى عليه .

إن الجهاد الشعبي الذى بدأناه فى فلسطين متأخراً عشرين عاماً قضيناها فى طريق من الإعداد الرسمى سبقنا عدوُّنا فيه ، يجب أن يمضى قدماً إلى غايته .

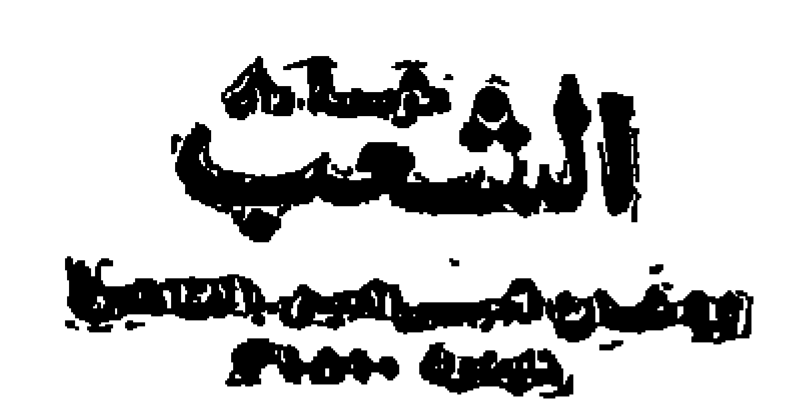
إننا فى حاجة إلى فدائية تعبأ لها كل قوى الأمة ، وإن شيئاً واحداً يعبىء الشعب المؤمن بدينه وبوطنه وبعروبته ، حيث لا يغنى شىء قط غناءه ، ولن يستطيع بغيره إنسان كائناً من كان توحيد العرب وجمعهم وتعبئة جهودهم ، إن ذلك الشىء الوحيد هو كلمة الله .

إن الله تعالى يقول لأعظم خلقه سياسة وحكمة ورأياً وشجاعة وخلقاً : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه سميع عليم » وإن كلمة الله التى جمع بها العرب قائمة وخالدة ، وإن وعده الذى كتبه على نفسه نافذ وقاطع والله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

لقد جمع الله لنا الشرق والغرب عام ست وخمسين ، وإن جهادنا بدأ من الجامع الأزهر فى خطبة الرئيس المشهورة : إننا نريد جهاداً ينبثق من المسجد ، وعلى هدى الله ، وبتنفيذ أحكامه ، وإقامة دينه ، فى كل مكان وكل عمل .

وعلينا أن نعلّم إسرائيل ويهود العالم من ورائها باللغة التى يفهمونها أن دولة لهم فى فلسطين وعلى حساب شعبها مستحيل ، وأن سلامهم وحياتهم إن شاءوا إنما يكون فى دولة عربية تُحفَظ فيها للأقليات حقوق ، يصونها شرف العرب ، وترعاها عدالة الإسلام .

ألا إن موعدهم الصبح ، وإن صبح النصر بإذن الله قريب .
والسلام .


مؤسسة دار
الشعب

رقم الايداع ٥١٨٧ / ١٩٦٩

